مكتبتنا العربية

عدد ذي القعدة سنة ١٣٦٦ المجلد الثامن عشر

٧٠ ١

مجلة الأزهر

تصدر شهريا عن مشيخة الجامع الازهر الشريف

مكتبتنا العربية

فهرس

الجزء الأول — المجلد الثامن عشر

الموضوع		بقلم	صفحة
تقديم	«	سعادة الأستاذ مدير المجلة	٣
تفسير الفاتحة	«	صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ...	٦
تطور التشريع الإسلامي ...	«	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغي	٢٢
الاسلام وحرية البحث ...	«	« « عبد المتعال الصعيدي	٣٢
الاصلاح بين الناس	«	« « طه السباعي ...	٣٩
التفسير السيلكوجي لحياة الرسول قبل البعثة	«	حضرة الأستاذ الدكتور [illegible] الحليم محمود	[illegible]
علم المنطق إحدى وسائل العقيدة عند المسلمين	«	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد [illegible] الشيخ	
علم النفس [illegible]	«	حضرة الأستاذ ابراهيم جمال [illegible]	
البيئة وأثرها في الأدب	«	فضيلة الأستاذ الشيخ [illegible]	
معنى الفقيه وتطوراته	«	« « «	٦٥
الاسلام في جنوب السودان	«	« [illegible]	٧٢
الصحف الدينية وأثرها	«	حا[illegible] [illegible] ...	٧٩
بيئة البصرة وأثرها في النحو العربي		[illegible]يخ محمد [illegible] ...	٨٣
حرمة الحج	«	جنة التقوى	٨٨
اعتذار	«	رياسة التحرير	٩٢
لائحة مجلة الأزهر	«	« «	٩٣

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مجلة الأزهر فى عهدها الجديد

فى سنة (١٣٤٥) هـ . (١٩٢٦) م اقترح أحد أعضاء مجلس الأزهر الأعلى ، إنشاء مجلة للجامعة الأزهرية ، لتحمل رسالتها الى سائر البلاد الاسلامية ، وتكون صلة علمية بين شعوبها العالمية ، فصدرت تلك المجلة فى أول المحرم من سنة (١٣٤٩) هـ . (١٩٣٠) م .

ظهرت هذه المجلة باسم (نور الاسلام) فتباشر بها المسلمون فى جميع أكناف الأرض، وتخاطفوا نسخها تيمنا بها، واتسع نطاقها حتى بلغ ما طبعه سبعة آلاف نسخة ، ولم تتم السنة الرابعة من يوم صدورها بعد ، مع أن مجال الكتابة فيها الى ذلك الحين كان مقصورا على التفسير والحديث ، وإحياء السنة وإماتة البدعة ، والدعوة الى الفضائل ، دون الخوض فيما تسرب الى القلوب من الشبهات العلمية من بين ثنايا المعارف الحديثة ، وما تحمله المجلات من الدراسات الفلسفية ، وما تصدره المطابع من ترجمات المؤلفات الأجنبية ؛ فكان القراء يشعرون فى هذا الدور بالحاجة الملحة الى معرفة رأى الدين فى تلك المقررات العلمية والفلسفية ، المزعزعة للعقائد الدينية ، على وجه يثلج عليه الصدر، ويحفظ كرامة الفلسفة والعلم ، وظلوا يطالبون مشيخة الأزهر بذلك بلسان الصحافة ؛ فرأت ضرورة إيتاء الناس بطلبتهم من هذه الناحية ، وأن تزيد فى مادة المجلة حتى تتناول مناقشة الآراء الحديثة والرد على ما يستدعى الرد منها ، لحماية القلوب من تسرب سموم الإلحاد إليها، محولا بين أنظار ما يدرسه الطلبة فى المدارس والجامعات المدنية ، بحيث تكون تلك المناقشات والردود مناسبة لما ألفه المعاصرون من أساليبها، ومستمدا من الكتب العلمية نفسها .

مكتبتنا العربية

فى هـذه الأثناء فوتحتُ فى أمر تولى إدارة مجـلة نور الاسلام ورئاسة تحريرها، فقبلت هذا العرض ؛ وفى اليوم الحادى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٣ باشرت مهمتى فيها ، فآنست من الرأى العام والصحافة ارتياحا نشطنى على المضى قُدُما فيما عهد به الىّ ، واطردت زيادة قراء المجـلة حتى بلغوا أربعة عشر ألفا . وما كادت تمضى سنتان حتى تولى مشيخة الأزهر المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فجعل اسمها (مجلة الأزهر) ، ومكثتُ أصدرها على عهده نحو عشر سنين ، حاظيا بتشجيعه المستمر ، وتأييده العظيم .

ولما لبى دعوة ربه ، وانتقل الى الدار الآخرة ، وخلفه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أهـلّ عهد جديد لمجـلة الأزهـر ، فانه حفظه الله لا يلافـه نظام الجامعات فى مصر وأوروبا طالبا ومدرسا ، كان لا بد له من أن يفيض على كل ما يسند أمره اليه النظـام الذى ألفه طوال حياته العلمية ؛ ففاتحنى فضيلته بأنه يرى أن يدخل مجـلة الأزهر فى طور جديد من الاتقان ، وتعدد البحوث ، وكبر الحجم ، ما تصبح معه مجلة جامعية بكل ما تتسع له هذه الـكلمة من المعانى .

فأجبت فضيلته بأن هذا الأمر أقصى ماتتطلّ اليه أمانى كل محب للاسلام، ثم لم يلبث أن أخذ يعقد لتحقيقه اللجان لوضع نظامه العملى ، وتقدير نفقاته ، وتبـين وجوه تنفيذه ، فكوّن لجنة دائمة لتشرف على تنفيذ لائحتها الداخلية ، مؤلفة من فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، ومن مديرها ، ومن حضرة الدكتور محمد ماضى ممثلا لحضرات مدرسى الـكليات ، وحضرة الدكتور محمود الخضيرى عن مكتب البحوث والثقافة ، وقد نشرنا هذه اللائحة فى ذيل هذا العدد .

بهذا الاصلاح القيم نأمل أن تبلغ مجلة الأزهر الى مستوى المجلات الجامعية الـكبرى ، وأن يكون للأزهر منها خير أداة لبث أنوار الثقافات التى تتلألأ فيه اليوم ، الى حيث تصل هذه المجلة من أرجاء العالم .

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مجلة الأزهر فى عهدها الجديد

فى سنة (١٣٤٥) هـ . (١٩٢٦) م اقترح أحد أعضاء مجلس الأزهر الأعلى ، إنشاء مجلة للجامعة الأزهرية ، لتحمل رسالتها الى سائر البلاد الاسلامية ، وتكون صلة علمية بين شعوبها العالمية ، فصدرت تلك المجلة فى أول المحرم من سنة (١٣٤٩) هـ . (١٩٣٠) م .

ظهرت هذه المجلة باسم (نور الاسلام) فتباشر بها المسلمون فى جميع أكناف الأرض، وتخاطفوا نسخها تيمنا بها، واتسع نطاقها حتى بلغ ما طبعه سبعة آلاف نسخة ، ولم تتم السنة الرابعة من يوم صدورها بعد ، مع أن مجال الكتابة فيها الى ذلك الحين كان مقصورا على التفسير والحديث ، وإحياء السنة وإماتة البدعة ، والدعوة الى الفضائل ، دون الخوض فيما تسرب الى القلوب من الشبهات العلمية من بين ثنايا المعارف الحديثة ، وما تحمله المجلات من الدراسات الفلسفية ، وما تصدره المطابع من ترجمات المؤلفات الأجنبية ؛ فكان القراء يشعرون فى هذا الدور بالحاجة الملحة الى معرفة رأى الدين فى تلك المقررات العلمية والفلسفية ، المزعزعة للعقائد الدينية ، على وجه يثلج عليه الصدر، ويحفظ كرامة الفلسفة والعلم ، وظلوا يطالبون مشيخة الأزهر بذلك بلسان الصحافة ؛ فرأت ضرورة إيتاء الناس بطلبتهم من هذه الناحية ، وأن تزيد فى مادة المجلة حتى تتناول مناقشة الآراء الحديثة والرد على ما يستدعى الرد منها ، لحماية القلوب من تسرب سموم الإلحاد إليها، محولا بين أنظار ما يدرسه الطلبة فى المدارس والجامعات المدنية ، بحيث تكون تلك المناقشات والردود مناسبة لما ألفه المعاصرون من أساليبها، ومستمدا من الكتب العلمية نفسها .

مكتبتنا العربية

تفسير الفاتحة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

بسم الله الرحمن الرحيم :

« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . آمين .

لا يكاد يوجد بين المسلمين من عُرْبٍ وعَجَمٍ من لا يستظهر سورة الفاتحة الكريمة . يقرؤها المسلمون في صلواتهم ، ويترحمون بها على أمواتهم ، ويتبركون بتلاوتها عند كل مناسبة . وإذا كان لأهل كل دين شعار فشعارُ أهل الإسلام بعد الشهادتين فاتحة الكتاب .

وقد تكلم المفسرون في بيان فضلها ورَوَوْا أحاديث كثيرة حتى قالوا : إن من عَلِمَ تفسير الفاتحة كان كمن عَلِمَ تفسير جميع الكتب المنزلة ؛ ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان . قال الفخر الرازي بعد ذلك : « قلتُ : والسببُ فيه أن المقصود من جميع الكتب الإلهية علم الأصول والفروع والمكاشفات ؛ وقد بيّنا أنّ هذه السورة مشتملة على تمام الكلام في هذه العلوم الثلاثة ؛ فلما كانت هذه المطالب العالية الشريفة حاصلةً فيها ، لا جَرَم كانت كالمشتملة على جميع المطالب الإلهية »

والمفسّرون يَبْسُطون القول في تفسير أم الكتاب ويفصّلونه تفصيلا . وقد أفرِد تفسير الفاتحة بالتأليف في القديم ، ولا يزال تفسيرها يُفرد بالتأليف ، عناية بها وتقديرا لمنزلتها بين المسلمين .

مكتبتنا العربية

والاستعاذة أو عبارة « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ليست جزءا من الفاتحة ، بل هى ليست من القرآن ، وليست مدونة فى المصحف الشريف الجامع للقرآن المنزل على محمد ، عليه الصلاة والتسليم ، وإنما يؤتى بها عند تلاوة الكتاب اتباعا لقول الله سبحانه : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (١)

والتعوذ مستحب لكل قراءة عند الجمهور ، سواء كانت القراءة فى الصلاة أو فى غيرها . وقال عطاء : الاستعاذة واجبة لكل قراءة . وعن ابن سيرين : إذا تعوذ الرجل مرة واحدة فى عمره فقد كفى فى إسقاط الوجوب .

واتفق الأكثرون على أن قراءة الاستعاذة قبل قراءة الفاتحة . ويرى بعضهم أنه إذا قرأ القارئ سورة الفاتحة وقال « آمين » ، فبعد ذلك يقول : أعوذ بالله . وهناك قول ثالث ؛ وهو أن يقرأ الاستعاذة قبل القراءة وبعدها جمعاً بين الأدلة المختلفة .

وتفسير « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » كما فى الطبرى : « أستجير بالله دون غيره من سائر خلقه من الشيطان أن يضرنى فى دينى أو يصدنى عن حق يلزمنى لربى » . اهـ

والشيطان فى كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء .

وفى كتاب المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى : « وسمى كل خلق ذميم للانسان شيطانا ؛ فقال عليه السلام : « الحسد شيطان ، والغضب شيطان » .

والشيطان الرجيم : المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى . وعلى هذا فمعنى العبارة : ألتجئ الى الله وأستنصر به على كل شىء من خلقه صاد عن الخير من جواهر الكون وأعراضه .

قال فخر الدين الرازى : « إن سر الاستعاذة هو الالتجاء الى قادر يدفع الآفات عنك ؛ ثم إن أجل الأمور التى يلقى الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن ؛ لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن وتفكر فى وعده ووعيده ،

(١) ١٦ / النحل / ٩٨ .

مكتبتنا العربية

تفسير الفاتحة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

بسم الله الرحمن الرحيم :

« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . آمين .

لا يكاد يوجد بين المسلمين من عُرْبٍ وعَجَمٍ من لا يستظهر سورة الفاتحة الكريمة . يقرؤها المسلمون في صلواتهم ، ويترحمون بها على أمواتهم ، ويتبركون بتلاوتها عند كل مناسبة . وإذا كان لأهل كل دين شعار فشعارُ أهل الإسلام بعد الشهادتين فاتحة الكتاب .

وقد تكلم المفسرون في بيان فضلها ورَوَوْا أحاديث كثيرة حتى قالوا : إن من عَلِمَ تفسير الفاتحة كان كمن عَلِمَ تفسير جميع الكتب المنزلة ؛ ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان . قال الفخر الرازي بعد ذلك : « قلتُ : والسببُ فيه أن المقصود من جميع الكتب الإلهية علم الأصول والفروع والمكاشفات ؛ وقد بيّنا أنّ هذه السورة مشتملة على تمام الكلام في هذه العلوم الثلاثة ؛ فلما كانت هذه المطالب العالية الشريفة حاصلةً فيها ، لا جَرَم كانت كالمشتملة على جميع المطالب الإلهية »

والمفسّرون يَبْسُطون القول في تفسير أم الكتاب ويفصّلونه تفصيلا . وقد أفرِد تفسير الفاتحة بالتأليف في القديم ، ولا يزال تفسيرها يُفرد بالتأليف ، عناية بها وتقديرا لمنزلتها بين المسلمين .

مكتبتنا العربية

وقال الزمخشري: «وهي سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم مَنْ عدّ «صراطَ الذين أنعمتَ عليهم» دون التسمية، ومنهم مَنْ مذهبُه على العكس».

وأما وصف آياتها السبع بأنهن مثاني، فلأنها تُثنّى على مرور الأوقات وتُكرّر.

وقد ذكروا في نزول هذه السورة ثلاثة أقوال: الأول أنها مكية؛ ويدل عليه أن سورة الحجر مكية بالاتفاق، وفي هذه السورة قوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيم» (١)؛ والسبع المثاني هي فاتحة الكتاب. والقول الثاني أنها نزلت بالمدينة. والقولُ الثالث أنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة أخرى؛ ولهذا السبب سمّاها الله بالمثاني؛ لأنه ثنّى إنزالها، وإنما كان ذلك مبالغةً في تشريفها.

وفي تفسير سورة الفاتحة بقلم السيد رشيد رضا: «وقطع شيخُنا الأستاذ الامام بأنها أول سورة نزلت من القرآن؛ وهو مروي عن عليّ كرّم الله وجهه، واستدلّ على ذلك بوضعها في أول القرآن بالإجماع وبموضوعها الشامل لمقاصده الكلية بالإجمال الذي عُلم به وجه تسميتها بأمّ الكتاب. والجمهور على أن أول ما نزل من القرآن هو أولُ سورة العَلق... ثم كانت الفاتحة أول سورة نزلت كاملةً وأمرَ النبي بجعلها أول القرآن وانعقد الاجماع على ذلك».

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم.

الاجماعُ على أن ما في المصحف الشريف كلامُ الله سبحانه وتعالى؛ والوفاق على إثبات «بسم الله الرحمن الرحيم» في المصاحف مع المبالغة في تجريد القرآن فلم تكتب فيها الاستعاذة ولا كلمة «آمين».

واختلفوا في البسملة في أوائل السُوَر؛ فقيل: هي آية من كل سورة؛ وقال آخرون: إنها ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السُوَر.

(١) ١٥ / الحجر / ٨٧.

مكتبتنا العربية

وإنما كُتِبَتْ للفصل بين السُّوَر والتبرّك بالابتداء بها . وفى قولٍ أنها آية واحدة من القرآن وليست جزءاً لشىء من السُّوَر .

أما الطبرى فيقول فى تفسير البسملة : «أدّب الله نبيّه محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله وتقدُّم إليه فى وصفه بها قبل جميع مُهِمّاته ؛ فمقول إذاً أن قول القائل إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم افتتح تالياً سورةً ، أن إتباعه بسم الله الرحمن الرحيم تلاوةَ السورة ينبىء عن معنى قوله بسم الله الرحمن الرحيم ، ومفهوم به أنه مريدٌ بذلك : أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم .

« وكذلك قوله بسم الله عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله يُنْبِىء عن معنى مُراده بقوله « بسم الله » وأنه أراد بقيله « بسم الله » : أقومُ بسم الله وأقعد باسم الله ؛ وكذلك سائر الأفعال . وتأويل قول القائل « بسم الله » أن معناه عند ابتدائه فى فعلٍ أو قولٍ : أبدأ بتسمية الله قبل فِعْلى أو قبْلَ قولى . وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، إنما معناه : أقرأ مبتدئا بتسمية الله أو أبتدىء قراءتى بتسمية الله ، فجعِل الاسمُ مكان التسمية كما جعل الكلامُ مكان التكليم ، والعطاء مكان الاعطاء . والعرب تخرج مصادرَ الأفعال على غير بناء أفعالها كثيرا » .

وكلام الزمخشرى فى الكشّاف لا يخرج عن معنى كلام الطبرى ؛ إلا أنه لا يرى أن الاسم بمعنى التسمية ويقدّر مُتَعَلَق الجارّ والمجرور فى « بسم الله » متأخرا ، وهو يقول : « ومتعلق الباء محذوف تقديره أقرأ ، أو أتلو ، وكل فاعل يبدأ فى فعله ببسم الله كان مُضمِراً ما جَعَل التسمية مبدأ له ويقدر المحذوف متأخرا ؛ لأن الأهمَّ من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به ؛ لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات ! باسم العُزّى ! فوجب أن يقصد الموحِّدُ معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل فى قوله : « إياك نعبد » حيث صرح بتقديم الاسم

إرادة للاختصاص . والدليل عليه قوله : « بسم الله مجريها ومرساها (١) » . ثم ذكر أن الباء فى بسم الله للاستعانة أو للمصاحبة ، واختار الوجه الأخير .

والأستاذ الشيخ محمد عبده يذهب فى تفسير هذه الآية مذهبا طريفا إذ يقول : « افتتاح القرآن بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها ؛ فما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به ، بل أن نقول هذه العبارة : بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنها مطلوبة لذاتها .

« ومثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم . وحاصل المعنى : أننى أعمل عملى متبرئا من أن يكون باسمى بل هو باسمه تعالى ؛ لأننى أستمد القوة والعناية منه وأرجو إعانته عليه ، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله ، بل ما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله . . . فلفظ الاسم معناه مراد ؛ ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضا . . . وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات . . . ومعنى البسملة فى الفاتحة أن جميع ما يقرر فى القرآن من الأحكام والآيات هو لله ومنه وليس لأحد غير الله فيه شىء » .

والله : اسم غير صفة ، مختص بالبارى ، لم يطلق على غيره . وقال الفخر الرازى : « المختار عندنا أن هذا اللفظ اسمٌ عَلَمٌ لله تعالى ، وأنه ليس بمشتق البتة ؛ وهو قول الخليل وسيبويه وقول أكثر الأصوليين والفقهاء » . ثم أورد أقوالا فى اشتقاقه مختلفة لمن يقول إنه ليس باسم علم ، وذكر أن بعضهم قال إن هذه اللفظة ليست عربية بل عبرانية وعقب على ذلك بقوله : « وهذا بعيد ولا يلزم من المشابهة الحاصلة بين اللغتين الطعنُ فى كون هذه اللفظة عربية أصلية » .

الرحمن الرحيم :

الرحمن : فَعلان من رحم ، والرحيم : فعيل منه ، كندمان ونديم من ندم . ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له ، لا من

(١) السورة ١١ (هود) الآية ٤١

مكتبتنا العربية

الذى وسع كل شىء رحمة ؛ والرحيم يستعمل فى غيره . قال تعالى : « إن الله غفور رحيم(١) » وقال فى صفة النبى ، صلى الله عليه وسلم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (٢) . وقيل : إن الله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ؛ وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين . وفى الرحمن من المبالغة ما ليس فى الرحيم . ويقولون : الزيادة فى البناء لزيادة المعنى . وجاء فى تفسير الطبرى : « وقد زعم أيضا بعض من ضعفت معرفته بتأويل أهل التأويل وقلت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير أن الرحمن مجازه ذو الرحمة والرحيم مجازه الراحم . ولا شك أن ذا الرحمة هو الذى ثبت أن له الرحمة وصح أنها له صفة ، وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم أو قد رحم » .

ويرى ابن القيّم فى تفسير الرحمن الرحيم الرأى الذى يعيبه الطبرى ؛ فهو يقول كما فى تفسير المنار : « وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى بديع ؛ وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ؛ وكأن الأول وصف والثانى فعل ، والأول دال على أن الرحمة صفته أى صفة ذات له سبحانه والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، أى صفة فعل له سبحانه ؛ فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيما(٣) » « إنه بهم رءوف رحيم (٤) » ، ولم يجىء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته »

أما الشيخ محمد عبده فيوافق ابن القيم من وجه ويخالفه من وجه ، وهو يشرح مذهبه على النحو الآتى : « والذى أقول : إن الصيغة فعلان تدل على وصف فعلىّ ، فيه معنى المبالغة ، كغضبان وهو فى استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان ، وأما صيغة فعيل فإنها تدل فى الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجايا فى الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل ؛ والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربى البليغ فى الحكاية عن صفات الله عز

(١) ٢ / البقرة / ١٧٣ الخ (٢) ٩ / التوبة ١٢٨ .
(٣) ٣٣ / الأحزاب / ٤٣ (٤) ٩ / التوبة / ١١٧

مكتبتنا العربية

وجل التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين . فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهي إفاضة النعم والإحسان . ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ؛ وبهذا المعنى لا يستغني أحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني مؤكدا للأول ؛ فإذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا ، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما ؛ لأن الفعل قد ينقطع إذا كان لم يخبر عن صفة لازمة ثابتة ، وإن كان كثيرا ؛ فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ، ويرضيه سبحانه ، ويعلم أن له صفة ثابتة هي صفة الرحمة ، التي عنها يكون أثرها ، وإن كانت تلك الصفة غير منال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهانا عليه » اهـ .

وقد يصعب الترجيح بين رأيي ابن القيم والشيخ محمد عبده ، لتكافؤ أدلتهما ؛ وكلا الرأيين لا يرضي الطبري .

ولعل الطبري يقول إن هذا التفسير لا تؤيده روايات أكثر السلف من المفسرين ، وإن كان العقل قد ينزع إليه .

الحمد لله رب العالمين :

الحمد والمدح أخوان ؛ وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها ؛ تقول حمدت الرجل على إنعامه ، وحمدته على حسبه وشجاعته ؛ هكذا يسوي الزمخشري في تفسيره بين الحمد والمدح . ويرى غيره فرقا بينهما . قال النيسابوري في تفسيره : « المدح للحي ولغير الحي كاللؤلؤة والياقوتة الثمينة ؛ والحمد للحي فقط . والمدح قد يكون قبل الإحسان ، وقد يكون بعده ؛ والحمد إنما يكون بعد الإحسان . والمدح قد يكون منهيا عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « احثوا في وجوه المداحين التراب (١) » ؛

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود عن المقداد بن الأسود مرفوعا

مكتبتنا العربية

والحمد مأمور به مطلقا ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يحمد الناس لم يحمد الله (١) » . والمدح عبارة عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره وبغير اختياره ؛ والحمد قول دال على أنه مختص بفضيلة اختيارية معينة ، وهى فضيلة الانعام إليك وإلى غيرك » . وكلام النيسابورى هذا هو عين كلام الرازى فى تفسيره .

والحمد لله : قال الطبرى : « تأويله : جميع المحامد لله بألوهيته وإنعامه على خلقه بما أنعم به عليهم من النعم التى لا كفء لها فى الدين والدنيا والعاجل والآجل . . . وذلك كله كلام الله جل ثناؤه ؛ ولكنه ، جل ذكره ، حمد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل ؛ ثم علّم ذلك عباده وفرض عليهم تلاوته اختبارا منه لهم وابتلاء فقال لهم : قولوا : الحمد لله رب العالمين ؛ وقولوا : إياك نعبد وإياك نستعين . . . والعرب قد يقولون للمسافر إذا ودعوه : « مصاحباً معافىً » ! يحذفون سر ، واخرج ، إذ كان معلوما معناه ، وإن أسقط ذكره . فكذلك ما حذف من قول الله تعالى ذكره « الحمد لله رب العالمين » لمّا علم بقوله جل وعز « إياك نعبد » ما أراد بقوله « الحمد لله رب العالمين » من معنى أمره عباده ، أغنت دلالة ما ظهر عليه من القول عن إبداء ما حذف » . اهـ

والرب فى كلام العرب يطلق على معان ثلاثة هى أصول ترجع إليها كل ما عداها من المعانى : السيد المطاع فيهم يدعى ربا ، والرب المصلح للشىء يدعى رباً ، والمالك للشىء يدعى ربه . فربنا ، جل ثناؤه ، السيد الذى لا شبه له ولا مثل فى سؤدده ، والمصلح أمرَ خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، والمالك الذى له الخلق والأمر .

والعالَمون جمع عالم . والعالم اسم يطلق على كل جنس من أجناس ذوى العلم ؛ وقيل اسم على كل جنس مما يعلم به الخالق . وإنما جمع بالواو والنون

(١) نص الحديث كما جاء فى جامع الترمذى : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » وعن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله »

مكتبتنا العربية

مع أنه عَلم ، وإنما تجمع هـذا الجمع صفات العقلاء أو ما في حكمها ، لما فيه من معنى الوصفية ؛ فهو اسم شابه الصفة في دلالته على الذات باعتبار معنى هو كونه يَعلم أو يُعلم به . فمعنى « الحمد لله رب العالمين » الحمد لله الذي له الخلق كله ، السموات والأرض ، ومن فيهن ، وما بينهن ، مما يعلم ، وما لا يعلم .

الرحمن الرحيم :

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفاتحة : « الرحمن الرحيم » تقدم معناهما وبقي الكلام في إعادتهما ؛ والنكتة فيها ظاهرة ؛ وهي أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة ، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثم نكتة أخرى ؛ وهي أن البعض يفهم من معنى الرب ، الجبروت والقهر ، فأراد الله تعالى أن يُذكّرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر « الرحمن » وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لها ، و« الرحيم » الثابتَ له وصف الرحمة لا يزايله أبدا ؛ فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرّفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ، ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع إليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويُقبلوا على اكتساب مرضاته منشرحةً صدورهم مطمئنةً قلوبهم » .

هذا وإن في تكرير وصف الله ، جل ثناؤه ، لنفسه بالرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب تأكيدا لمعنى أن الدين الذي القرآنُ كتابُه تقوم فضائله ونظمه على الرحمة والحب والإحسان ، لا على البغي والشقاق والطغيان .

مالكِ يومِ الدِّين :

قرىء مَلِك يوم الدين ومالك . قال ابن جرير : « ولا خلافَ بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن المَلِك من المُلك (بضم الميم) مشتق ، وأن المالك من الملك (بكسر الميم) مأخوذ . فتأويل قراءة من قرأ ذلك « مَلِك يوم الدين » أن لله الملك يوم الدين خالصا دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكا جبابرة . وأما تأويل قراءة من قرأ [illegible] فإنهما

مكتبتنا العربية

لا يملك أحد فى ذلك اليوم معه حكماً كما ملكهم فى الدنيا . والدين فى « يوم الدين » بتأويل الحساب والمجازاة » .

إياك نعبد وإياك نستعين :

تخصك بالعبادة وتخصك بطلب المعونة . والعبادة تعنى غاية الخضوع والتذلل . . . ولذلك لم يستعمل إلا فى الخضوع لله تعالى ؛ لأنه مولى أعظم النعم ، فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع . . . ولما ذكر الخالق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، حقيق بالثناء ، وغاية الخضوع ، والاستعانة فى المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات . هذه عبارات الكشاف .

ويقول الطبرى : « وتأويل قوله « إياك نعبد » : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين إقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك . وعن عبد الله بن عباس قال : قال جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد إياك نعبد ! إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك . وإنما اخترنا البيان عن تأويله بمعنى نخشع ونذل ونستكين دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونخاف ، وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة ، لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، ومعنى قوله « وإياك نستعين » وإياك ربنا نستعين على عبادتك وطاعتك وفى أمورنا كلها ، لا أحداً سواك ؛ إذ كان من حقيقة من فى موردة معبوده الذى يعبده من الأوثان دونك ؛ ونحن لك مستعينون فى جميع أمورنا مخلصين لك العبادة » .

أما الشيخ محمد عبده فيذكر أنهم يقولون فى معنى العبادة : هى الطاعة مع غاية الخضوع وزاد بعضهم التعظيم والحب ؛ ثم يقول : وإنما إذا تتبعنا آى القرآن ، وأساليب اللغة واستعمال العرب للعبد ، وما يماثلها ويقاربها فى المعنى ، كخضع ، وخنع ، وذل ، نجد أنه لا شىء من هذه الألفاظ يضاهى عبد ، وتعبد ، وعبادة ، ثم قال : « تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربى الصريح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار

مكتبتنا العربية

القلب عظمةَ المعبود لا يعرف منشأها ، وعن اعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه » .

وكلام الشيخ محمد عبده في العبادة دقيق وجيه . وقد يفهم من كلام الشيخ عليه رحمة الله ، أنه يقر جعل معنى الذلة أصلا لمعاني مادة عبد كلها . وليس ببعيد أن يكون للمادة أصلان ، أحدهما معنى الرق المقتضي للخضوع والتذلل لسيد متعال ؛ أما المعنى الثاني فحب وأمل لمحبوب متصف بصفات الجمال والكمال ؛ تلك عبودية ، وهذه عبادة . ولئن تقارب اللفظان فمعناهما متباعد جدا ؛ وفي لغات العرب وأساليبها لذلك أشباه . وفي كتاب المقاييس لابن فارس أن لمادة العين والباء والدال أصلين صحيحين كأنهما متضادان ، أحدهما يدل على لين وذل ، والآخر يدل على القوة والصلابة . وربما كان فيما ذكرنا آنفا من كلام الأستاذ الشيخ محمد عبده ما يشير الى هذا المعنى ؛ فقد ذكر أن بعضهم يعتبر في معنى العبادة التعظيمَ والحب ، وذكر في إيراد « الرحمن الرحيم » بعد « رب العالمين » أن الله تعالى كأنه أراد أن يتحبب الى عباده فعرّفهم أن ربوبيته ربوبيةُ رحمة وإحسان ، ليعلموا أن هذه الصفات هي التي ربما يرجع اليها معنى الصفات ، وليتعلقوا به ، ويقبلوا على اكتساب مرضاته ، منشرحةً صدورهم ، مطمئنة قلوبهم » .

وهل معنى الحب والأمل إلا هذا ؟

ثم قال الشيخ محمد عبده في الاستعانة : « هي طلب المعونة ، والمعونةُ هي سد العجز ، والمساعدةُ على إتمام العمل الذي يعجز عنه المستعين بنفسه ...

« أمرنا الله تعالى بألا نعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد فيعظّم تعظيم العبادة ...

« أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة « وإياك نستعين » الى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . أحدهما أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا ؛ لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى ألا ينجح فيه ، فطلبَ المعونة على إتمامه وكماله ...

مكتبتنا العربية

وإليهما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك » اهـ .

اهدنا الصراط المستقيم :

هَدَى أصله أن يتعدى باللام أو بإلى ؛ ويعامل معاملة اختار فيتعدى بنفسه . وعدى الطبرى أن معنى قوله « اهدنا الصراط المستقيم » فى هذا الموضع : وفقنا للثبات عليه ... فكان معنى الكلام : اللهم إياك نعبد وحدك لاشريك لك مخلصين لك العبادة دون ما سواك من الآلهة والأوثان ، فأعننا على عبادتك ، ووفقنا لما وفقت له من أنعمت عليهم من أنبيائك وأهل طاعتك من السبيل والمنهاج . اهـ .

والصراط : الطريق . والاستقامة تقال فى الطريق الذى يكون على خط مستو ، وهو ضد المعوج ، وبه شبه طريق الحق .

قال الفخر الرازى : «قال بعضهم : الصراط المستقيم الاسلام ؛ وقال بعضهم القرآن ؛ وهذا لا يصح ؛ لأن قوله « صراط الذين أنعمت عليهم » بدل من الصراط المستقيم ؛ وإذا كان كذلك ، كان التقدير : اهدنا صراط من أنعمت عليهم من المتقدمين ؛ ومن تقدمنا من الأمم ما كان لهم القرآن والاسلام ؛ وإذا بطل ذلك ، ثبت أن المراد : اهدنا صراط المحقين المستحقين للجنة »

قال الأستاذ الشيخ عبده : «قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق ؛ ونحن نقول : إنه جملة ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم » .

صراط الذين أنعمتَ عليهم :

قال الطبرى : « إبانةٌ عن الصراط المستقيم : أيُّ الصراط هو ؛ إذ كان كل طريق من طرق الحق صراطاً مستقيما ، فقيل لمحمد ، صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد : اهدنا يا ربنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك ، من ملائكتك وأنبيائك ، والصديقين والشهداء والصالحين » .

مكتبتنا العربية

غـير المغضوب عليهم ولا الضـالين :

بدلٌ من الذين أنعمتَ عليهم على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال ، أو صفةٌ على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله والضلال .

ومعنى غضب الله هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقـوبة بهم . وأدخلت « لا » في « ولا الضالين » لما في «غير» من معنى النفي . هذا كلام الزمخشري .

وكلام الفخر الرازي مفسرٌ وموضح لـكلام الزمخشري . يقـول : « الغضب تغيرٌ يحصل عند غليان دم القلب لشهوة الانتقام . واعلم أن هذا على الله تعالى محال ؛ لـكن هاهنا قاعدة كلية ، وهي أن جميع الإعراض النفسانية ، أعني الرحمة والفرح والسرور والغضب . . . لها أوائل ولها غايات . ومثاله الغضب فإن أوله غليان دم القلب ، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه ؛ فلفظ الغضب في حق الله تعالى لا يحمل على أوله الذي هـو غليان دم القلب ، بل على غايته الذي هو إرادة الإضرار » .

ويقول الطبري في تفسير معنى الغضب : « واختلف في صفة الغضب من الله جل ذكره ؛ فقال بعضهم : غضبُ الله على من غضب عليه من خلقه إحلال عقوبته بمن غضب عليه إما في دنياه وإما في آخرته . وقال بعضهم : غضبُ الله على من غضب عليهم من عباده ذم منه لهم ولأفعالهم ، وشتمٌ منه لهم بالقول . وقال بعضهم : الغضبُ منه معنى مفهوم كالذي يعـرف من معاني الغضب ، غير أنه وإن كان كذلك من جهة الإثبات ، فمخالفٌ معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشق عليهم ويؤذيهم ؛ لأن الله ، جل ثناؤه ، لا تحل ذاته الآفاتُ ، ولـكنه له صفة كما العلم له صفة ، والقدرة له صفة . . . وكل حائدٍ عن قصد السبيل ، وسالك غير المنهج القويم ، فضال عند العـرب ، لإضلاله وجه الطريق » اهـ .

مكتبتنا العربية

وفى تفسير الفخر الرازى بعد أن ذكر أن المشهور أن المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى قال : « بل الأولى أن يحمل المغضوب عليهم على كل من أخطأ فى الأعمال الظاهرة وهم الفساق ، ويحمل الضالون على كل من أخطأ فى الاعتقاد » .

ودلت هذه الآية كما فى تفسير الرازى على أن المكلفين ثلاث فرق : أهل الطاعة ، وإليهم الإشارة بقوله « أنعمت عليهم » ، وأهل المعصية ، وإليهم الاشارة بقوله « غير المغضوب عليهم » ، وأهل الجهل فى دين الله والكفر ، وإليهم الاشارة بقوله « ولا الضالين » .

أما « آمين » فهى ، كما يقول الزمخشرى ، صوتٌ سمى به الفعل الذى هو : استجبْ .

وعن النبى ، صلى الله عليه وسلم : « لقننى جبريل عليه السلام آمين عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب وقال إنه كالختم على الكتاب » اهـ .

وليس آمين من القرآن بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف .

وفى تفسير البيضاوى : وليس آمين من القرآن وفاقاً .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

يا صاحب الجلالة :

ليَهنِك الشهرُ العظيم المبارك ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، شهر العبادة والتقى ، وشهر البر والخيرات والاحسان ! وحقّ هذا الشهر على المسلمين أن تؤدّى عبادته ، وتقام شعائره . وقد أديتَ يا صاحب الجلالة حقه ، وأقمت شعائره ، وبسطت يديك بالعطاء للمساكين والفقراء ، وفتحت لهم أبواب قصورك يأكلون ويشربون ويستمعون الى الذكر الحكيم ، ويتمتعون بطلعة

مكتبتنا العربية

الملك العظيم . وتأسى بجلالتك شعبك المحب لذاتك ، والمعترف بحسناتك ، حتى أصبح شهر رمضان فى المملكة المصرية كلها موسم بر وعبادة وإحسان .

ولقد كان من قبلك ملوك أحيَوْا ليالى رمضان بقراءة القرآن ومدارسته ؛ لكنك يا صاحب الجلالة صنعت ما لم يصنعوا .

كانت تُلقى فى بعض العصور فى بعض القصور دروس دينية تحضرها رجالات القصر وحاشية الملك ؛ أما أنت فنقلت هذه الدروس الى بيوت الله لتسعى اليها كما تسعى الرعية ، وجلست فى هذه الدروس الى جانب العظماء من شعبك ومن ليسوا عظماء ، لتعلم الناس التواضع ، وتعلمهم المساواة بين يدى الله. زادك الله يا صاحب الجلالة تواضعا لله ، وزادك رفعة وتمكينا ، وألقى الله عليك محبة منه ، وجعلك منارا عاليا ، وإماما هاديا .

أما بعد : فإنى أستأذن حضرة صاحب الجلالة فى أن أذكر بالخير فى هذا المقام ، رجلا جديرا بأن يذكر بالخير ؛ ذلك هو الصالح المصلح الشيخ محمد مصطفى المراغى سلفى الجليل ، تحية وفاء له ؛ فقد علمت الناس يا صاحب الجلالة أن يكونوا أوفياء . ندبته يا صاحب الجلالة لإلقاء هذه الدروس فلبى دعوتك مخلصا لله فى كفاية ممتازة وعزم قوى ؛ ولقد حمّل نفسه فى سبيل مرضاة الله ومرضاتك ما لم تحتمله حالته الصحية فخرّ فى ميدان الجهاد صريعا راضيا مرضيا ، كرم الله وجهه وأكرم مثواه !

والله يحفظك يا مولاى غرة فى جبين الدهر ، ورجاء للاسلام والعروبة ورجاءً لمصر !

تطور التشريع الاسلامى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى

للاسلام ميزة لا يشركه فيها غيره من الأديان؛ ذلك أنه دين جمع الى خواص التشريع مزايا قانون الأخلاق ، واستطاع بذلك أن يسيطر على أغلب تصرفات الانسان ، حتى مالم يكن منها ذا ظاهرة مادية .

وكل فعل لمكلف فهو من اختصاص ذلك القانون ، ويعطيه حكما ، فامتزج بذلك التشريعُ بالأخلاق ، وأصبحت تشعر فى شىء كثير من تكاليف الشريعة الاسلامية النزعة الأخلاقية ، وأصبح الاسلام لا يعرف فرقا من حيث المسئولية أمام الله بين ما يعدّ ديناً وما يعد فى عصرنا الحاضر دنيا ، وامتزج حق الله أو النظام العام — بالتعبير الحديث — بحق الفرد .

بدأ الاسلام بذلك ، وأسبغت الأجيال الطويلة على تلك التكاليف شيئا من القدسية ، وأصبح ذلك التراث الضخم من نظريات الشريعة الاسلامية يعرف باسم الدين ، وهو واجب الاحترام . ولكل نظرته حيالها ، وأصبح الناس على ضوئها (وتحت تأثير الحياة العملية) فريقين :

١ — فريق يرى أن ما وصل الينا مقدس لا يجب أن يمس بتغيير حتى ولو كان رأيا لفقيه أملته عليه ظروف البيئة والعرف ، وأن الخروج عنه خروج عن دائرة الشريعة ويستحق كل ما يستحقه خارج عنها نسبيا .

٢ — فريق يرى أن الشريعة الاسلامية قانون كغيرها من القوانين وكغيرها من النظم التى وضعت لسعادة البشر ، فيجب أن تخضع لتطورات الزمن بحيث تستطيع أن ترضى حاجات الناس دون إرهاق أو إعنات ، مادام العمل على هذا لم يخرج الناس عن الدوائر العامة التى رسمها الاسلام ، والتى وصلت الينا من طريق حق .

وشىء كثير من هذا النزاع الواقع بين الناس اليوم ناشىء عن الاصطدام بين هذين الرأيين ، أو بين هاتين الفلسفتين ، فى النظر الى الشريعة الاسلامية .

مكتبتنا العربية

وما من شك فى أن هـذا الخلاف ليس وليد العصر الحاضر الذى أعشى عيونَ الناس فيه ذلك البريقُ الخلاب الذى وصل الينا من طريق الغرب ، ولا تلك الحياة التى يحياها القانون فى الغرب ويساير فيها حاجات الناس والجماعات ويمهد لهم طريقا حسنا لضبط حياتهم ونظم معاملاتهم دون تعسف أو تكلف ، وإنما هو أمر قديم بقدم الشريعة نفسها يوم أن اصطدمت أوضاعها (فى عصور التأليف والتدوين ويوم سد باب الاجتهاد) بما كانت تعج به الحياة يومذاك من أحداث ، وما كان يحدث للناس من قضايا تبعا لما يحدثون من هجور

وكان المسلمين فى كل جيل مصلح أو مجدد كما كان يسمى ؛ وكان كثير من المسلمين هدفا للنقد من معاصريهم تبعا لحريتهم فى فهم الشريعة الاسلامية ، بل كثيرا ما كانت هذه الحرية سببا فى الاضطهاد فى كل قرن من القرون حتى اليوم ؛ وكان كثير من الفقهاء يبرمون بهذه الحالة أشد البرم ، ويضرعون الى الله أن ينقذهم مما هم فيه ؛ وقد نقل الشاطبى فى كتابه الاعتصام صورة ما وقع له من هذا العنت وقال فى خلاصتها : وماحالى وحال الناس معى إلا كما يقول الحافظ ابن بطة :

ليت ياقوم والبلوى منوعة ... عن أداريه حتى كاد يردينى
دفع المضرة لا جلبا لمصلحة ... فحسبى الله فى عقلى وفى دينى

وكان الفقه تبعا للسياسة فى كثير من المناسبات ، ووجد رجال السياسة من الفقهاء أداة طيعة لأغراضهم ، فكانت الاضطهادات تخف حدة أو تزداد تبعا للأجواء السياسية التى كان يعيش فيها الفقيه أو المصلح أو المجدد .

وما من شك فى أن الفقه لم يكن بدعا من أنواع الثقافات الاسلامية التى خضعت لما خضع له الفقه ، وما الأدوار التى مرت بها صور العقائد الاسلامية وما دار حولها ببعيدة عن أذهان الدارسين للتاريخ الاسلامى .

وما من شك فى أن تلك القيود الحديدية التى ألبسها بعض الفقهاء للتشريع الاسلامى تجد فى بعض الأحايين ـ من الفقهاء أنفسهم ـ من يحاول تحطيمها تبعا لظروف الحياة السياسية والاقتصادية . وانظر الى تلك الثروة التى خلفها

مكتبتنا العربية

الفقهاء فى باب الوقف وما أبدعوا فيه من تفاريع وتفاصيل ؛ ثم انظر وراء هذا الى ما ذكره شارح تنوير الأبصار من الحنفية فى كتاب الصرف وكتاب الربا ، وماذكره هو وغيره من الفقهاء فى كتاب الجهاد والخراج وفى كتاب الإجارات ، وماتركوا من قواعد تأثرت كثيرا بالنظام الاقطاعى فى مصر المماليك والعثمانيين وفى الأناضول ، فترى إذ ذاك أنهم كانوا يحاولون أن يجدوا منفسا يساير مقتضيات الحياة الاقتصادية ونظام البلاد الاجتماعى ولو لم يكن له إلا صلة ضئيلة بقواعد الفقه التى مدت من هنا وجذبت من هنالك لتكون ثوبا مناسبا للرغبة المطلوبة ، وكان ذلك كافيا (لو تقدم بأصحابه الزمن) أن يجد من يثور عليه وعلى القائلين به ثورة عاتية لا تبقى ولا تذر .

فالى أى مدى يمكن أن نحفظ للشريعة الاسلامية جمالها وسلطانها على الأفراد والجماعات ، دون أن نقف أمام تيار الحياة سياسية أم اقتصادية ، ونقف أمام مقتضياتها جامدين فنجرف كما جرفت أمم من قبلنا وقفوا على حرفية الشرائع والنظم دون أن يفهموا معناها وروحها ، واضطروا للى الكلام وتحريفه ، واضطروا للحيل مما نعى الله أمثاله عليهم ؟

وهل من الخير أن نقف هذا الموقف فى عصر كل ما فيه سريع لا يبعى الوقوف ، وفى مكنتنا أن نسير معه دون أن نخرج عما رسمه الله عز وجل متى فهمنا حق الفهم روح التشريع ومراميه دون أن نقيد أنفسنا برأى فقيه معين أو بقاعدة معينة ، فنضطر للأخذ بالضعيف من الأقوال ، ونضطر للف والدوران ، مما لا يجعلنا فى نتائج أبحاثنا منطقيين أمام نفسنا وأمام الناس ؟

وهل من الخير أن ننظر لأفعال العباد ـ فيما عدا ما لا يمكن إدراك معناه بالرأى والاجتهاد كالعبادات ـ على أنها ممنوعة حتى يأتى دليل الحل ، وفاسدة حتى يأتى دليل الصحة ، كما يقول بعض الفقهاء ، فنضيق بالنصوص ويبرم الناس بالشريعة ؟ أم الخير كل الخير فى أن ننظر لتصرفات الناس جميعا على أنها مباحة ، وعقودهم على أنها محترمة ، ومعاملاتهم على أنها جائزة حتى يقوم الدليل على حرمتها ؛ الدليل الذى جاءنا عن سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ،

مكتبتنا العربية

أو أجمع عليه المسلمون إجماعا حقا ، نقل الينا نقلا صدقا ، لا قاعدة يقول بها فقيه أو استنباطا مما قاله فقيه .

فالركون الى هذه القواعد الفقهية التى قال بها بعض الفقهاء استنباطا قد لايسلمها له غيره ، وإن سلمت فقد تكون قاعدة اقتسرت اقتسارا من هنا ومن هناك من فروع فتأتى استثناءاتها أكثر من الفروع التى انطبقت عليها القاعدة ، وكانت الفروع التى جاءت القاعدة على ضوئها قد قيل بها تبعا لظروف خاصة ، ومع ذلك فكثيرا ما وقفت أمام الناس فى تصرفاتهم فأوقعتهم حيارى يلجئون كل حين الى فقيه أو مفت لأخذ بيدهم من ورطة لا مناص منها ، أو يعملون عامدين أفرادا وجماعات تحت سمع العلماء وبصرهم على نقيض هذه القواعد ، فيبرم الفقهاء والمفتون ، وتثور عجاجة الكلام بين الناس ، ويتراشق الكاتبون والمدافعون حول أشياء قد تخرجهم عن الصواب أو قد تؤدى الى فتن لا تحمد مغبتها ، كما نشاهد فى مصر وفى كثير من القرى فى الأرياف ، وكما تحدثنا عن ذلك أضابير لجنة الفتوى فى الأزهر الشريف ، وكان خاتمة المطاف فى كثير من الأحايين أن لم يعد لكلام العلماء وزن ، وأفلت الأمر من يد رجال الشريعة وهم كارهون ، وأهملت آراؤهم وهم آسفون . وشىء من التدبر والأناة فى فهم كتاب الله وسنة رسوله كاف فى أن ينير لنا الطريق فى مجاهل هذه المشاكل . ومن قبلنا عرض الامام العظيم غير مدافع ابن تيمية لمشاكل العقود وأنواع التصرفات ، وبسط قواعدها بسطا وافيا فى الجزء الثالث من فتاواه ، وحبذا لو قرأ المعنيون بالشريعة عندنا هذه القواعد الجليلة وعملوا على ضوئها .

والتشريع فى مصر — فى الأحوال الشخصية من سنة ١٩٢٠ الى الآن — أكبر شاهد على ما نقول . وإن الأمر فى المعاملات وفى العقود المدنية لو كان موكولا أمر تدبيره لرجال الشريعة وطلب اليهم أن يضعوا قانونا على غرار قانون الأحوال الشخصية وتمسكوا بحرفية النصوص لرأوا ذلك العنت الذى رأوه عند وضع قانون الأحوال الشخصية واضطروا أن ينزلوا كارهين على حكم الحياة وما جد فيها ليجذبوا الناس الى الفقه الاسلامى ويرضوا تلك النوازع والعواطف التى ظهرت عوارضها على لسان كثير من الناس حتى من لا يعرفون

إلا بصلة بعيدة للفقه الاسلامى ، بدل أن يصرفوهم عنه ، ويدل أن يصوروا الشريعة كائنا جامدا ميتا فى زاوية من زوايا الأرض فى كلية الشريعة فى الجامع الأزهر ، فيحاول غيرهم أن يخرجه للنور ليستمتع بالحياة كاملا ، وقد أصبحوا كما يقول ابن عاشر :

يزهدنى فى الفقه أنى لا أرى يسائل عنه غير صنفين فى الورى
فزوجان راما رجعة بعد بتة وذئبان راما جيفة فتعشرا

أليس ما شكا منه ابن عاشر هو ما نشكو منه اليوم ؟ ! والذى يقضى منه العجب أنك تحس بذلك الألم كلما خلوت إلى واحد من جلة الشيوخ فى الأزهر وتجد منه تمام الاستعداد لمعونتك ومسايرتك ، فاذا رجوت إليه أن يعلن هذا على الملأ وأن يعمل جاهدا على وفقه ، وقفت — كما يقولون — ظروف الحياة وملابساتها !

الخير كل الخير أن نرجع للتشريع النقى الطاهر المبارك الذى تركه لنا سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وصحيفته البيضاء ، وليلها كنهارها ، القائم على كتاب الله وسنة رسوله دون محاولة أو دوران ، ودون قسر للنصوص على ما يراد أن تقسر عليه لترضى القواعد التى قال أو يقول بها بعض الفقهاء مما لا يتردد بعض الناس فى وصفه بأنه من الدين بمعزل ، وارجع الى كتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ، لابن عبد البر لترى العجب من أقوال الفقهاء بعضهم فى بعض وتجريحهم فى الدين ، قالوا

والخير كل الخير فى أن نفهم أن ما وصل إلينا على أنه فقه قد مر بأدوار تاريخية صبغته بالصبغة التى كانت تناسب البيئة ، وبأعراف قد نزلت الأحكام الفقهية على ضوئها قد تخالف أعرافنا اليوم التى اضطر الفقهاء أن يعترفوا بها وأن ينزلوا النصوص على ضوئها أيضا ، وأن يفصلوا أنواع هذه الأعراف ومقدار مسايرتها للنصوص ، كما فعل ابن عابدين فى رسالته نشر العرف .

وهذا الامام أبو يوسف لم يتردد فى تجويز اعتبار البُرّ وزنيا فى عصره مع النص على كيليته ، ولم يكن أبو يوسف متجنيا بذلك على النص وإنما فهم علة التشريع فى النص فقال بما قال على فهم حق للشريعة وروحها .

هذه كلمة عجلى جعلتها بين يدى الكلمة التى تكرمت بطلبها مجلة الأزهر عن تطور التشريع الاسلامى الذى سنحاول الكلام عليه تباعا ، راجين أن يكون فيه وفى المجلة فى ثوبها الجديد المبارك ، إن شاء الله ، ما نرجو من نفع وفائدة .

* * *

التشريع الاسلامى

جاء الرسول عليه السلام الى العرب كما جاء الى غيرهم من الأمم ؛ وقد واجه أول ما واجه ، العرب فى مكة وبقايا من أهل الكتاب كانوا فى مكة طريق القوافل ، ومركز المصارف المالية للتجارات بين الشام واليمن .

ولكن الآيات فى مكة فى مستهل الدعوة الاسلامية كانت معنية بالأمور المتعلقة بالدعوة الى الله وتوحيده وثل سلطان الشرك والوثنية بين هذه الأمم . وعاش الرسول عليه الصلاة والسلام ما عاش فى مكة ودعوته تساير هذه الأغراض ، حتى إذا اتجه الى المدينة تغير الموقف وأصبح الاسلام أمام قوة من العرب ومن ظاهرها من أهل الكتاب يجب أن يحسب حسابها ، وأن تعد لها أسلحة غير الأسلحة الأولى ، وأن يبنى ذلك النظام على وجه يستطيع أن يصمد لهذه العوادى الغريبة ، فاتجهت التشريعات اتجاها مدنيا سياسيا يناسب ذلك التكوين الجديد .

وليس ثمة شك فى أن العرب كان لهم بعض المعرفة بشىء مما نسميه نحن فقها ، سواء أكان ذلك مشتقا من نظام الحياة البدوية وألوان المعاملات القبلية ، أم بقية من تشريعات سابقة اتصل بها العرب فى عصور متفاوتة . والعرب لم يكونوا بمعزل عن العالم كما يظن بعض الناس ؛ ففى جزيرة العرب سارت قوافل ومرت تجارات ، وكان فى مكة وخيبر نشاط تجارى يهودى لا يظن معه أن اليهود أهملوا الدعوة الى التوراة وما فيها من أحكام قد نلمس بعضها مقرا فى التشريع الاسلامى وفى تاريخ العرب فى الجاهلية . وفى جزيرة العرب اصطدمت مدنيات ، وفيها تنازعت بيزنطة وفارس ، واصطرعتا اصطراعا كانت خاتمة مطافه حادثة الأخدود وقصة الفيل ، حتى ذهب بعض المؤرخين الى أن تقسيم العرب الى عدنانية وقحطانية لم يكن يعنى فى الواقع أكثر من

مكتبتنا العربية

تقسيمهم الى فريقين : فريق يشايع الفرس فى الجنوب الشرقى ، وفريق يشايع بيزنطة فى الجنوب الغربى وفى الشمال .

طبيعى إذاً أن يكون للعرب من البيئة ومن الوسط شىء من القانون . وفى التشريع الاسلامى آثار مما كان لهم ، وأقره الاسلام ، كمسألة القسامة التى كانت فى الجاهلية فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقضى بها ، كما حدث بذلك أصحاب السنن ، وكوضع الدية على العاقلة فى الخطأ ؛ كما كان لهم شىء من العبادات كمناسك الحج والنكاح والطلاق ، وشىء من النذور التى عمد القرآن الى إلغائها والتعفية عليها . ولكن ذلك (مع التسليم به) لا يصح أن يسمى قانونا أو فقها على النحو المعروف ؛ فإن ظروف الحياة من أمية العرب وجهلهم لم تكن لتسمح لشىء من العلوم أن ينمو على وجه كامل ، خصوصا أن الحياة كانت تقوم عندهم على أساس العصبية لا على أساس الأمة والدولة وحفظ كيانهما ، ولا يمكن أن ينمو قانون إلا على ضوئه .

فلما جاء الاسلام أراد — كما قلنا — أن يسيطر على حياة المسلمين خاصة وعامة ، وأن يجعلها جميعها على وفق ما شرع ، على تفاوت فى تلك السيطرة من ناحية المظاهر التى تلبس الأفعال ثوبها ، كما سنعرض له فيما بعد ، فعرض للمصالح الاجتماعية من نظام الأسرة ونظام الدولة مالياً وسياسياً ؛ وعرض للآداب الفردية حتى دخل مع الرجل الى بيته ليؤدبه ويهذبه ؛ وعرض للحريات الشخصية فبيّنها وبين أنها مكفولة ، لا يعتدى أحد على أحد فيها إلا بحق الله ؛ وعرض للمعاملات وللعقود وطرق الالتزامات ، إلى غير ذلك مما انفرد به الاسلام ؛ وأصبح الفقه عن هذا الطريق نظاما عاما شاملا لكل ما يعرف الآن باسم القوانين العامة والخاصة والإدارية وغيرها . ولعل السر فى هذا ، الظاهرة التى انفرد بها الاسلام وهى بساطته ومحاولته إرضاء العواطف البشرية بالقدر الذى لا يضر الفرد ولا يعوق بسير المجتمع ، وبساطة طرق التشريع . فالرسول هو المبين ، وجميع ماصدر منه من قول أوفعل أوتقرير فهو تشريع . وهذه البساطة هى التى سهلت وضع الأساس لهذه الثروة العظيمة الضخمة ،

مكتبتنا العربية

واستكمال أهم عناصرها فى سنوات لاتجاوز العشر عدًّا ، بينما تطلّب غيرها من القوانين عشرات السنين والقرون ليكمل فقها ، وينضج قانونا .

بذلك رسم الإسلام المثل العليا للمسلمين والدولة الإسلامية على نحو يخالف ما عرفه العرب من مثل عليا ، سداها ولحمتها العصبية وحاجة الفرد ؛ وأصبح المسلمون أمة متكافلة متضامنة ، يداً على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ؛ وأصبح الخطاب موجها للجماعة لأنها النواة ، وأهمل الفرد كفرد ، لأن حياته مشتقة من حياة الجماعة . ويقول الرازى فى تفسير قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ما خلاصته : إن هناك أمانة بين العبد وربه ، وأمانة بين الانسان ونفسه ، وأمانة بين الانسان وأخيه الانسان ، والانسان مكلف بأداء جميع الأمانات والقيامة عليها وحياطتها .

وهذه العبارة ترسم لنا فكرة واضحة عن سر التكاليف الاسلامية ، ونبل الغاية التى تهدف اليها .

كانت مصادر التشريع فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن والسنة ، وعلى ضوئهما جاءت كل الثروة الاسلامية الفقهية ؛ فالاجماع وأخواته من المصادر التى تختلف باختلاف المذاهب لم تحدث إلا بعد وفاة الرسول ، ومرجعها فى الواقع (كما يقول علماء الأصول) إلى القرآن ، فهو فى الحقيقة المصدر الأساسى للتشريع الاسلامى .

ولسنا بحاجة للإفاضة فى الكلام عن هذه المصادر وتاريخها وطرق الاستفادة منها ، والخلاف فى كل ذلك بين الفقهاء المجتهدين ، فمحل ذلك كتب الأصول وتاريخ التشريع الاسلامى ، وما نحن بسبيل منه الآن هو تكوين فكرة عن التطور الذى لحق الاسلام فى شتى عصوره .

والرسول عليه السلام كان فى حياته المرجعَ الأول فى كل شىء من الأشياء التى تحتاج إلى تشريع أو حكم ، سواء أكان ذلك بنص أوحى اليه أم باجتهاد منه ، على النحو الذى تقرر فى الأصول فى اجتهاده صلى الله عليه وسلم . وما كان لأحد أن يصدر حكما فى شىء ويعتبر نافذا إلا إذا توافرت فيه شروط التقرير منه عليه السلام بإجازة قولية أو سكوتية . فالفقه فى عهده

مكتبتنا العربية

صلى الله عليه وسلم كان محدودا فى مرجعه ، محدودا فى المصدر الذى صدر عنه ، لا يستطيع واحد من المسلمين رد شىء أو المناقشة فى شىء مما جاء عن هذا المصدر .

ويهمنا فى هذه المناسبة أن يفهم الناس التصرفات التى صدرت منه صلى الله عليه وسلم ؛ فقد يكون فى فهمها نوع من الإرشاد للطريق الذى يجب أن يسلكه الناس فى التشريع ليدعوا التزمت الذى ابتلى به كثير من الناس . واليك عبارة للقرافى ذكرها فى تصرفاته صلى الله عليه وسلم ، قال ما خلاصته :

« وتصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم فى التشريع كانت دائرة بين الرسالة والفتيا والقضاء والإمامة ؛ وهو فى الرسالة مبلغ عن الله تعالى ؛ كما أنه فى الفتيا ، وهى إخباره عن الله بما يجده من الأدلة من حكم تعالى ، مبلغ وناقل أيضا ؛ وذلك مثل إبلاغ الصلاة وإقامة المناسك ونحوها . وأما تصرفه بالقضاء والحكم فهو مغاير للفتيا والرسالة من حيث إنهما تبليغ محض واتباع صرف أما الحكم والقضاء فهو إنشاء وإلزام من قبله صلى الله عليه وسلم بحسب ما نتج من الأسباب والحجاج ؛ ولذلك قال : « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه ، إنما أقتطع له قطعة من النار » . فهو فى هذا المقام منشىء ، وذلك مثل إلزام أداء الديون ونقد الأثمان وفسخ الأنكحة [illegible] فهو وصف زائد على ذلك ، لأن الامام هو الذى فوض اليه السياسة العامة وضبط معاقد المصالح ودرء المفاسد وقمع الجناة وقتل العصاة ، وتوطين العباد فى البلاد ، إلى غير ذلك ، وهذا ليس داخلا فى الفتيا والرسالة ، لتحقق ذلك بالإخبار عن الله ، وهذا لا يستلزم تفويض السياسة العامة ؛ فكم من رسل بعثوا ولم يطلب منهم النظر فى المصالح العامة ، كما أنه ليس داخلا فى الحكم لتحققه بالتصدى لفصل الخصومات دون السياسة العامة والتنفيذ الذى هو أمر زائد عن الحكم مباين له من حيث هو حكم . وآثار هذه الحقائق فى الشريعة مختلفة ؛ فما فعله عليه السلام بطريق الإمامة لا يجوز لأحد الإقدام عليه إلا باذن الإمام ؛ وما فعله بطريق الحكم لا يجوز لأحد أن يقدم

مكتبتنا العربية

عليه إلا بحكم الحاكم فى الوقت الخاص . وأما تصرفه بالرسالة فذلك شرع يتقرر على الناس الى يوم الدين ، فيجب اتباع كل حكم مما بلغه الرسول عن ربه عند قيام سببه من غير اعتبار حكم حاكم . ولهذا النظر أثره فى اختلاف الفقهاء فى بعض المسائل ؛ فمن ذلك قوله عليه الصلام : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » فقال أبو حنيفة : هذا منه تصرف بالامامة ، فلا يجوز لأحد أن يحيي أرضا إلا باذن الامام لأن فيه تمليكا ، فأشبه الاقطاع ، وهو موقوف على إذن الامام فكذلك الاحياء . وقال مالك والشافعى : هو تصرف بالفتيا لأنه الغالب فى تصرفات النبي فيحمل عليه تغليبا للغالب ، فلا يتوقف على إذن الامام لأنه فتيا بالاباحة كالاحتطاب والاحتشاش بجامع تحصيل الأملاك بالأسباب الفعلية » . إلى آخر ما ذكره القرافى من الفصل الممتع الذى عقده لهذه المسألة فى كتابيه « الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والامام » و « الفروق (الفرق الثالث والثلاثون) » .

وأصول الفقه على هذا النحو قد اكتملت فى العصر النبوى على الأنحاء التى عرض لها القرافى ، والتى يجب أن تعتبر دستوراً عند النظر إلى تصرفات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبناء الأحكام على ضوئها ، وما كان لأحد أن يزيد بعد ذلك حكما إلا على وفق هذه القواعد التى قررت فى عهده صلى الله عليه وسلم ، والتى اتخذت مقياسا لتشريع الأحكام كلما حزب المسلمين أمر من أمور الأحكام التى تحتاج إلى تشريع « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » (١) « الحديث موصول »

الاسلام وحرية البحث

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى
المدرس بكلية اللغة العربية

بعث الله تعالى الرسل ليدعوا الناس إلى الايمان به ، وقد دعوا الناس الى الإيمان بطريقين :

أولهما : طريق المعجزات الخارقة للعادة ، لأنها تدل على وجود إله قادر تخضع له نواميس الكون ، وتسير على وفق قدرته ومشيئته ؛ فتارة تأخذهم الى الايمان به أخذا ، وتبهرهم بما فيها من خوارق العادات ، وعجائب القدرة الإلهية ؛ وتارة يُمارون فيها ، وينسبونها الى الشعوذة والسحر ، فيأخذهم الله بعنادهم ، ويهلكهم بتماديهم فى كفرهم .

وثانيهما : طريق البحث والنظر ، وهو الذى أشار إليه القرآن الكريم فى الآية ١٦٤ من سورة البقرة : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .

وفى قوله تعالى فى الآية ١٩٠ من سورة آل عمران : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »

وفى قوله تعالى فى الآية ٤ من سورة الرعد : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وفى قوله تعالى فى الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ من سورة الغاشية : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ، وإلى السماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نُصبت ، وإلى الأرض كيف سُطحت » .

مكتبتنا العربية

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تحث على النظر في ملكوت السموات والأرض ، ليؤدي الى الايمان بالله عن طريق الاقتناع العقلي ، ويصل الإيمان فيه الى القلب بطريق البحث والنظر ، فلا يأخذ الله الناس فيه بما يأخذهم به في الطريق الأول ، بل يمهلهم فيه حتى يجيء إيمانهم عن اقتناع ، وتطمئن قلوبهم به بعد إمعان البحث ، وتقليب وجوه النظر .

وهذا الطريق هو الذي سلكه إبراهيم عليه السلام في الإيمان بالله تعالى كما بينه القرآن الكريم في الآيات : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من سورة الأنعام « وكذلك نري إبراهيم ملكوتَ السموات والأرضِ وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليلُ رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفلَ قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

فهذا استدلال بطريق العقل على وجود الله تعالى ووحدانيته ؛ وقد جاء قوله تعالى « فلما أفل قال لا أحب الآفلين » على هيئة الشكل الأول من القياس الاقتراني الحملي ، وقد حذفت مقدمته الأولى اكتفاء عنها بلازم الثانية « لا أحب الآفلين » . وقد نوّه الله تعالى بشأن هذا الطريق الذي سلكه إبراهيم عليه السلام ، ورفع به شأنه على قومه وعلى سائر الأنبياء قبله ، وجعله خليله واصطفى ذريته على غيرهم ، فلم يثبت الإيمان به في أحد من الأمم كما ثبت فيهم ، لأن الإيمان الذي يحدث بطريق البحث والنظر يكون أرفع شأنا ، وأثبت أركانا ، وأقوى يقينا ، فقال تعالى بعد ذلك في الآيات : ٨٢ إلى ٩٠ من سورة الأنعام « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجاتٍ مَن نشاء ، إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين . وإسماعيل واليسعَ ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم

مكتبتنا العربية

وإخوانهم، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هُدَى الله يهدى به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقْتَدِهْ، قل لا أسألكم عليه أجرا، إن هو إلا ذكرى للعالمين » .

ومن ينظر فى هذه الآيات يجد أن الله بعد أن نوه بتلك الحجة التى آتاها إبراهيمَ، أمر نبيه محمدا أن يتخذها طريقا له، فيسلك فى الإيمان طريق النظر الذى سلكه إبراهيم، ويأمر أتباعه بأن يتخذوه طريقا لهم، لأنه الطريق الذى هدى إليه العلم، وجاءت به الحكمة المقتبسة من الوحى، فمن سلكه كان من العلماء الصالحين، واندرج فى سِلكِ الحكماء الناصحين، وازداد بعلمه يقينا، واستمد من حكمته معرفة ونورا، ولا يكون شأنه فى ذلك كشأن من يؤمن لا عن علم، ولكن عن طريق المعجزة الحسية، فإن الإيمان بها يستوى فيه العالم والجاهل، ولا يثبت على الشكوك والأوهام التى تقوم بالنفس بعد انقطاع المعجزة .

ولهذا لم يرض الله للمسلمين أن يجعل إيمانهم عن طريق الآيات والمعجزات فلم يأتهم بخوارق العادات كما أتى من قبلهم من الأمم . ولم يجب المشركين إلى ما كانوا يقترحونه من الآيات، ويطلبونه من المعجزات، بل كان يوبخهم على طلبها، ويبين لهم أن أغلب الأمم قبلهم كان يكذب بها، فلا تؤدى بهم إلى الإيمان، وإنما تكون سببا فى عذابهم وهلاكهم، كما قال تعالى فى الآية ٥٩ من سورة الإسراء : « وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

وكما قال تعالى فى الآية ٧ من سورة الرعد : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، إنما أنت منذر ولكل قوم هادٍ »، وفى الآية ٢٧ من هذه السورة : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب » .

مكتبتنا العربية

على أن الرسل السابقين كانوا يسلكون فى الدعوة إلى الايمان بالله طريق النظر قبل أن يسلكوا إليه طريق المعجزات ، فلا يأتون أقوامهم بها إلا بعد أن يأخذوهم بالأدلة النظرية ، ويقيموا لهم البراهين على وجود الله تعالى ، فاذا لم يفد ذلك معهم ، وتمادوا فى التكذيب بعد أن تقوم الحجة عليهم ، أتاهم بتلك المعجزات ، وأرسل إليهم تلك الآيات .

وهذا كما فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، فإن الله تعالى لما أرسله إليه هو وأخوه هارون لم يبدأه بالمعجزات التى أرسله بها ، بل سلك إليه أولا طريق النظر ، ودعاه الى الايمان بالدليل ، كما يدعو غيره من آحاد الناس ، ممن لم يؤيد بالوحى والمعجزات ، فقد ذكر الله تعالى فى الآية ٤٩ من سورة طه أن فرعون سأل موسى عن ربه « قال فمن ربكما يا موسى » ؟ فأجابه عن ذلك فى الآيات بعدها بذكر الأدلة التى تثبت وجوده ، فقال : « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » . فلما كذب وعاند بعد قيام هذه الأدلة أخذه بمعجزة العصا وغيرها من المعجزات التى أيده بها

ومن هذا كله يتبين أن الايمان بطريق النظر هو الأصل ، وأن الرسل لم يعدلوا عنه الى الايمان عن طريق المعجزة إلا بعد أن تمادى من يدعونهم فى الجحود ، وحال بينهم وبين الايمان بالدليل فرط جهلهم وعنادهم ، وأنهم كانوا من الجبابرة العتاة الذين لا يؤمنون إلا بالقوة الخارقة ، والقدرة التى تعجز أمامها قدرتهم ، فاذا لم يؤمنوا بعد ذلك حق عليهم عذاب الدنيا والآخرة ، كما حكى الله تعالى عن نوح وقومه فى سورة نوح : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان

مكتبتنا العربية

غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا . قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين إلا ضلالا . مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » .

وقد أطلق الله تعالى لعباده حرية البحث حين اختارهم أن يؤمنوا به عن طريقه ، فلم يؤاخذهم بما يقعون فيه من الخطأ ، لأن الباحث عن الحقيقة قد يضل قبل أن يصل اليها ، وقد يعتريه شكوك وأوهام تحجبه حينا عنها ، فلا يصل اليها إلا بعد جهاد وعناء ، وإلا بعد أن يتغلب على تلك الشكوك والأوهام ، فاذا وصل اليها بعد ذلك أعطاه الله عليها أجرين : أجر الوصول اليها ، وأجر ما عاناه فى البحث عنها ، وإذا مات وهو يبحث عنها لم يضيع عليه أجر بحثه ، بل يأخذه بالعفو والصفح ، ويشفع له عنده ما قام به من بحث .

وهذا ابراهيم قد أخطأ ثلاث مرات فى طريق الوصول أخطأ فى المرة الأولى حين جن عليه الليل ورأى كوكبا فقال هذا ربى ، وأخطأ فى المرة الثانية حين رأى القمر بازغا فقال هذا ربى ، وأخطأ فى المرة الثالثة حين رأى الشمس بازغة فقال هذا ربى هذا أكبر ، فلم يؤاخذه الله بذلك بعد أن وصل الى الايمان به ، لأن الخطأ من طبيعة الانسان ، وقد ركب عقله على أن يصيب ويخطىء ، فلا يجوز فى عدل الله أن يؤاخذ على ما يقع فيه من خطأ ، بل لم يمنع ذلك الخطأ المتكرر من التنويه بمسلك ابراهيم فى الاستدلال ، لأن من الخطأ ما لا يعاب ، وكثيرا ما يكون الخطأ طريق الصواب ، ويكون الشك طريق اليقين .

مكتبتنا العربية

ولم يفرق الإسلام في إطلاق حرية البحث بين أصول الدين وفروعه ، وقد بلغ من فسحه الباب في ذلك على مصراعيه أن الله تعالى سمح لبعض أنبيائه وأصفيائه أن يسأله في أخطر مسائل الدين ، وأشدها دخولا في باب الاعتقاد ؛ ومن هذا ما ورد في الآية ٢٦٠ من سورة البقرة « وإذ قال إبراهيم رَبِّ أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير فصُرْهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادْعُهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

فقد سمح الله سبحانه لإبراهيم عليه السلام في ذلك أن يسأله في مسألة البعث ، وهي من أهم مسائل الاعتقاد ، ليزداد فيها اطمئنانا ، ويقوى بها إيمانا ، فلا يتطرق اليه فيها شك ، ولا يحوم حوله فيها شبهة ؛ ولا حرج في طلب زيادة الإيمان وإن كان في مثل تلك المسألة من أصول الدين .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في الآيات : ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ من سورة المائدة « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أنْ قد صدقتنا ونكونَ عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إني منزّلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » .

فقد جاء في هذه الآيات أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام « هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء » وقد كانوا أصفياء عيسى ورسله ، وهذا السؤال في صفة القدرة وهي من أهم مسائل العقائد ، ولكنهم أرادوا معجزة يزداد بها اطمئنانهم ، ويتضاعف بها يقينهم ، فأجابهم الله تعالى الى ما طلبوا ، لأنه أطلق لعباده حرية البحث عن الحقيقة ، وخلق الانسان وفي طبيعته من النقص ما يجعله يتفاوت في الإيمان قوة وضعفاً ، فلم يشأ مع هذا أن يضيق عليه اذا أراد أن يزداد يقيناً ، ولم ير حرجا ألا يقنع بما عنده من إيمان ، وأن يسأله ما يطمئن به على إيمانه .

مكتبتنا العربية

ولكن الله تعالى مع هذا لم يقبل أن يسمع لقوم آخرين ما عندهم من شبه أو شكوك ، بل غضب عليهم ولعنهم وطردهم من رحمته ، ولم يجبهم عن شبههم كما أجاب من أراد أن يزداد اطمئنانا ؛ وهذا كما فعل مع إبليس حين أمره بالسجود لآدم فأبى لأنه يرى أنه أعلى منه ، فقال فى الآيات : ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة الأعراف : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين » .

فقد أخطأ إبليس فى عصيانه أمر الله تعالى ، ثم أصر على خطئه واعتمد فيه على تلك الشبهة التى ذكرها ، والمصر على خطئه معاند لا يعذر فى خطئه ، وكان عليه أن يجيب أمر الله تعالى أولا ، ثم يورد ما عنده من شبهة ليزيل ما فى نفسه من ذلك الأمر ، ولكنه لم يفعل ذلك ووقف من الله موقف المعترض المعاند ، ومن يقف هذا الموقف من الله تعالى لا يكون طالب حقيقة ، فلا يعذر فى موقفه ، ولا يعذر فى خطئه ، وإنما يعذر من طلب الحقيقة فأخطأ فى طريقه إليها ، لما عنده من حسن القصد ، وحسن القصد مما يقبل به العذر ؟

كرامة العلم

دخل رجل على عبد الملك بن مروان ، وكان لا يسأله عن شىء إلا وجد عنده منه علما ، فقال له أمير المؤمنين : أنى لك هذا ؟

فقال الرجل : لم أمنع قط يا أمير المؤمنين علما أفيده ، ولم أحتقر علما أستفيده ، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته .

وقال حكيم : لو أن أهل العلم صانوا علمهم لسادوا أهل الدنيا ، لكنهم وضعوه فى غير موضعه فقصر فى حقهم أهل الدنيا .

الاصلاح بين الناس

عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا » . قالت : ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : يعني الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » . رواه الشيخان (١)

المفردات

نمى الحديث ينميه (بالتخفيف) بلغه على وجه الإصلاح والخير ؛ ونماه ينميه ، وكذلك نمّه ينمه وينمه (بالتشديد فيهما) : بلغه على وجه الإفساد والشر . و أو للشك من الراوي في أي اللفظين قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي تدل كما قلنا في أمثالها على العناية والضبط ، وتحري ألفاظه صلوات الله وسلامه عليه ؛ وفي هذا أبلغ رد على من يزعم أن الأحاديث المروية بألفاظها قليلة معدودة

المعنى

أمر عظيم الشأن ، جليل الخطر ، أعظمه العرب في الجاهلية ، ورفع النبي صلى الله عليه وسلم مكانه في الاسلام : ذلك هو الإصلاح بين الناس .

طبائع الناس متفاوتة ، ورغباتهم متضاربة ، وأهواؤهم شتى ؛ فلا جرم أنهم يتنازعون ويتقاتلون ما بقي على ظهر الأرض نفس منفوسة « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »

وغني عن البيان ما تنطق به الشواهد ، وما تكشف عنه الحوادث من آثار الخلاف في الأسر والجماعات ، والأحزاب والأمم .

---

(١) إلا أن قولها : ولم أسمعه يرخص الخ مما انفرد به مسلم في إحدى روايات الحديث

مكتبتنا العربية

إنه ليقع فى الأسرة الواحدة بين الزوجين أو الأخوين ، فيُظلم البيت ، وتقطع الأرحام ، وتشرد الأطفال ، وتسوء الحال ؛ وإنه ليقع بين الجارين أو الشريكين أو الصاحبين ، فينصرم حبل المودة ، وتنفصم عروة المحبة ، ويغلى مرجل العداوة والبغضاء ؛ وكفى بذلك تنغيصا للعيش ، واضطرابا فى الحياة ! وإنه ليقع بين الحزبين أو البلدين ، فيكون الطعان واللعان ، والزور والبهتان ، حتى تتعطل المصالح وتقع الأمة فى الهاوية !

وإن الخلاف ليكون ـ وما أسوأ ما يكون ـ بين الأمتين أو القطرين ، فيسوء الجوار ، ويعم الدمار ، وتشتعل نار الحرب التى تهلك الحرث والنسل ، وتأتى على الأخضر واليابس ، فلا تأبى أن تحصد شيخا فانيا أو طفلا باكيا !

وإذا كان الخلاف فى أغلب أحيانه شرا لا بد منه ، وداء لا محيص عنه ، فمن رحمة الله بعباده وقد ابتلاهم به ـ وله الحكمة البالغة ـ أن يرشدهم إلى دواء يطبه ، فيزيل سورته ، ويخفف وطأته ، إن لم يستأصل شأفته ويذهب به . وقد يُجرى الله على أيدى الأساة من المصلحين خيرا كثيرا ، وغنما كريما ، وآثارا حميدة .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

من أجل ذلك ندب الله إلى الإصلاح ، وحض عليه فى غير آية من كتابه ، حتى قضى بأنه لا خير فى كثير من كلام الناس ونجواهم « إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » ورغب فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى جعله أفضل الصدقات ، وفضله على نوافل العبادات ؛ روى الطبرانى عن عبدالله ابن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » . وروى الترمذى وغيره عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » .

ومن أوضح الدلائل على خطر الإصلاح ، وجليل شأنه ، وعظيم عناية النبى صلى الله عليه وسلم به ، أن رخص فى الكذب فيه ، مع أن الكذب

مكتبتنا العربية

شعبة من شعب النفاق التى لاتجتمع هى والايمان أبدا . والكذب فى الإصلاح أن يبلغ المصلحُ كلا من الخصمين مالم يقله صاحبه ، قصدا إلى تأليف القلوب ، وتقريب المودة ، حتى يحل الوئام محل الخصام ، والوفاق محل الشقاق ؛ وذلك من أسمى المقاصد التى جاءت بها الشرائع ، والأديان ، وبنيت عليها سعادة بنى الانسان .

وموضع آخر رخص النبى صلى الله عليه وسلم فى الكذب فيه ، وهو حديث الرجل زوجه ، وحديث المرأة زوجها : كأن يثنى كل منهما على صاحبه بما ليس فيه ، توطيدا لعقدة الزواج والألفة ، وتوثيقا لآصرة المحبة والمعاشرة.

وموضع ثالث وهو الحرب ، والكذب فيها سلاح حاد ، يعرفه كل من المتحاربين ، ويستعمله للإيقاع بصاحبه والتنكيل به ، ما أمكنه الخداع وواتته الفرصة ، ورب كذبة أنقذت دولة وهوت بأخرى . و « الحرب خدعة » (١) .

وبعد ؛ فلا بد لهذا الترخيص الذى رخص النبى صلى الله عليه وسلم من حكمة سامية ؛ ولا بد لمن عرض لهذا الحديث — وهو حديث من لاينطق عن الهوى — أن يحاول كشف القناع عنها ، ليكون من هدى نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، على بصيرة .

لقد جاءت الشرائع والقوانين قاطبة بذم الكذب ، وامتداح الصدق ، مساوقة للفطرة ، وموافقة للعقل ؛ وأجمع الناس على ذلك قديما وحديثا ، حتى عدوا من أصدق القول وأحكمه ما قال ابن المقفع : رأس الذنوب الكذب ؛ هو يؤسسها ، وهو يتفقدها ويثبتها .

أما الاسلام فانه لم يرفع من فضيلة كما رفع فضيلة الصدق ، ولم يهين من رذيلة ، كما شان من رذيلة الكذب ؛ وحسبك ما جاء فى حديث الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر

---

(١) لفظ حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه . و « خدعة » مثلثة الخاء ، وكهمزة . قال فى القاموس : وروى بهن جميعا .

مكتبتنا العربية

يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ؛ وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ، وما جاء فى الموطأ عن صفوان بن سليم رضى الله عنه أنه « قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم . قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال نعم . قيل : أفيكون كذابا ؟ قال لا » . فاذا كان هذا بعض ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى ذم الكذب والتحذير منه فكيف يرخص فيه فى هذه المواطن الثلاثة ؟

لقد بُنى الاسلام على أسس ثابتة ، ومناهج محكمة ، تكفل لمن استمسك بها فى جملتها وتفصيلها ، سعادة الآخرة والأولى ؛ ذلك أنه لم يقف فيما أمر ونهى ، وأحل وحرم ، موقف التنطع والجمود ، ولم يذهب مذهب السرف والمغالاة ، وإنما سار مع المصلحة أنى كانت ، فبينا هو يرفع شأن الصدق إلى أن يجعله رأس الفضائل ، تراه يحرمه إذا أدى إلى ضرر أو فساد ، كما حرم الغيبة وجعل المغتاب آكل لحم أخيه ميتا ، وحرم النميمة وأخبر بأنه « لا يدخل الجنة نمام » (١) وبينا هو يخفض شأن الكذب إلى أن يجعله رأس الرذائل ، تراه يحله بل يوجبه إذا أدى إلى حقن دم مصون أو حفظ حق واجب ؛ فاذا اختفى امرؤ من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وسأل إنسانا عنه وجب على المسئول أن يكذب فى إخفائه ، وكذا لو كان عنده وديعة وأراد الظالم أن يغتصبها وجب الكذب فى إخفائها ، ولو حلف فى سبيل ذلك ، إعظاما للدماء وصونا للحقوق ؛ فالكذب حرام إلا لضرورة ملحة أو رخصة مسوغة . ومن قواعد الشريعة أن الضرورات تبيح المحظورات .

غير أن الاسلام لم يَدعْ للناس أن يقدروا المصلحة ويحددوا الضرورة ، وإنما تولى هو تحديدها ، ونص على مواضعها ، لئلا يترك مجال التأويل فسيحا تتلاعب به الأهواء والشهوات .

---

(١) لفظ حديث أخرجه الشيخان عن حذيفة رضى الله عنه . وكفى به تهديدا للنمام ودليلا على مقت السعاية .

ولا يرتاب أحد بعد الذى قدمنا من آثار الخصام ، أن الكذب فى سبيل الوئام والسلام حسن محمود ، بل هو خير من الصدق حينئذ ، ومن المعروف أن للوسائل حكم الغايات .

أما الكذب بين الزوجين فى تقارض الود ، وتبادل المحبة ، لا فيما يسقط حقا ، أو يفضى الى باطل ، فهو من وسائل السعادة الزوجية التى توصى بها الأديان ، ولا سيما دين السلام ، ثم هو فى جملته يرجع الى الاصلاح ؛ وإن شئت فقل هو وقاية للزوجين من الشقاق ومساوئ الأخلاق. والوقاية خير من العلاج.

وأما الكذب فى الحرب فهو فى حقيقة الأمر ليس كذبا ، لأن حال المتحاربين تنادى بألا يصدق أحدهما صاحبه وإن كان صادقا ، وبأن يأخذ حذره منه ما استطاع .

على أنه يجمل بمن تحلى بفضيلة الصدق ألا يألو جهدا فى التحرز من الكذب المرخص فيه ، بالتعريض والتورية (١) ، صونا للسانه عن الكذب الصراح . ومن ذلك ما حكى الله تعالى عن خليله ابراهيم عليه السلام ، إذ قال لقومه : « إنى سقيم » حين أراد أن يتخلف عنهم ليحطم أصنامهم ، فظنوه مريضا فتركوه ، وما به إلا مرض الغيظ من أصنامهم التى اعتزم تحطيمها . ومن ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه وقد سئل عن رفيقه وهو مهاجر مع النبى صلى الله عليه وسلم : من ذا ؟ فقال هادٍ يهدينى السبيل .

ألا إن الإصلاح بين الناس خصلة من خصال الشرف والمروءة ، وخلة من خلال الفضل والنبل ، وجزء من شرائع الأنبياء والمرسلين ، بل هو عماد دعوتهم ، وأساس رسالاتهم . وما أحوج هؤلاء البشر ، وقد اصطخبت بينهم المعارك ، واشتعلت فيهم نيران الخصومة ، الى من ينهج فى إصلاحهم منهج النبيين ، ويستار فيهم سيرة الصادقين المخلصين ! « وما ذلك على الله بعزيز » ؟

طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

(١) بأن يكون الكلام معنيان يريد أحدهما وهو صادق فيه ، ويفهم السامع المعنى الآخر وهو غير ما يريد .

التفسير السيكلوجي

لعزلة الرسول قبل البعثة

للأستاذ اتيين ديميه الفرنسي

محمد والعرب — محمد والطبيعة — محمد والمستشرقون

ترجمها عن الفرنسية حضرة الأستاذ الدكتور عبد الحليم عون

كان القرشيون على استعداد لأن يمنحوا من لقبوه بالأمين ، من مراتب الشرف ، ماتطمح اليه النفوس وما تعتز به ؛ وأن يمكنوه من مركز اجتماعي سام ؛ غير أن نفسه ، وهي بمعزل عن العُجب والطمع ، كانت ترفض ، في ازدراء ، كل عرض من هذا النوع . لذلك كان تدخله المرضي فيما نشأ من خلاف بسبب وضع الحجر الأسود ، هو الحادثة الاجتماعية الوحيدة ، طيلة الخمسة عشر عاما التي تلت زواجه .

بم كان يشغل محمد نفسه إذاً ؟ لقد غرس الله في قلبه حب الوحدة ، ثم إنه كان شغوفا بفضاء الله الواسع يسبح فيه ، فريداً ، أنى شاء .

ما سبب ميله هذا ؟ لاشك أن تلك الوحدة الكالحة التي تحيط بمكة كانت تحيي فيه ذكريات طفولته السعيدة ، في أثناء إقامته بالبادية . بعم ، غير أن روحه التي اصطفاها الله كانت تجد متعة أسمى وأروع ، في الهرب من الانحلال الأخلاقي والضلال الديني اللذين سادا في العرب إذ ذاك

حقيقة إن العرب وصلوا من الاعتداد بالنفس ، ومن النبل والشجاعة والاستقلال إلى أعلى الدرجات ؛ وبلغ كرمهم الى مرتبة هي من السمو بحيث لم يتأت للآخرين تخطيها ؛ وإن حاتماً الطائي ليعتبر أمير الكرماء بلا منازع .

حقيقة إن بلاغتهم وشعرهم لا يخشيان التخلف ، فى مضمار السباق ، عما ينتجه أعاظم الخطباء ، وفحول الشعراء العالميين . وما من شك فى أن الشعر ، الذى كان يمكنهم من الإشادة بمظاهر البطولة وآيات الكرم ، ومن التغنى بنعيم الحب والاستغاثة من جحيمه ، كان بالنسبة إلى هؤلاء القوم ، ذوى العواطف الملتهبة ، شعيرة دينية تحيطها القداسة ، وتخدمها ، فى انسجام ، أجمل اللغات نغما وموسيقى .

لقد كان سوق عكاظ مسرحا لتبارى الشعراء ، يصفق فيه الناس ، متحمسين مأخوذين ، للمنتصر ، ثم تكتب قصيدته بحروف من ذهب ، وتعلق بالكعبة ؛ ولقد وصل الينا من هذه القصائد سبع ، سميت بالمعلقات ، وهى تسرى ، فى وضوح ، إلى أى حد من السمو وصلت العبقرية العربية فى الشعر .

أجل ، ولكن بجانب هذه الصفات المزهرة ، الفطرية فى العرب ، كم من من ضلال يرثى له ؟ ! لقد نسوا نسيانا تاما دين التوحيد ، الذى نشره فيهم جدهم إبراهيم ، وإن كانوا قد استمروا فى تقديس الكعبة التى بناها بيديه ، واتخذوا لله شركاء ، زعمهم ، من أصنام تحظى ، عادة ، بتفضيلهم ؛ وكان لكل قبيلة بل ولكل أسرة صنم تؤثره عما عداه ، وأصبحت الكعبة مباءة لثلاثمائة وستين صنما ، من خشب أو من حجارة ، تعبد من دون الله .

أنصاب ، وأزلام ، وسكر ، واستعمال للسحر والرقى . . . كل هذا كان يهوى بعقلية هؤلاء القوم الذين وهبهم الله استعداداً فطريا رائعاً . لقد تركوا لأنفسهم الحبل على الغارب ، وأسرفوا فى فهم الحرية ، فكان الرجل منهم يتزوج من النساء أكبر عدد يمكنه تغذيته ، وكان من تقاليدهم أن النساء تورث كما يورث العقار ؛ فقد كان الابن بعد موت أبيه يتصل اتصالا جنسيا بمن ورثهن من زوجات والده .

ذلك ، لاشك ، بشع مخجل ؛ بيد أن البشاعة قد بلغت أقصى مراتبها فى وأد البنات ؛ لقد تغالى العرب وأسرفوا فى كل ما يتصل بالشرف ، وذهب بهم هذا الإسراف إلى تخيل احتمال أن يؤذى شرفهم بسبب سوء سلوك فتاة

مكتبتنا العربية

أو بسبب اختصابها ؛ وجسم الخيال ذلك لبعض الآباء الذين أفسدت المغالاة طبائعهم ، فتوهموا ثم ظنوا ، وتخيلوا ثم خالوا وخافوا ، ففضلوا القضاء على بناتهم منذ أن يتنسمن الحياة .

ولقد كان ميل العرب إلى التباهى ، وحساسيتهم المرهفة فيما يتعلق بالكرامة ، وكبرياؤهم ، من أكبر العقبات التى تمنعهم من الخضوع للنظام ؛ لذلك كان كل ارتباط ، أو تقدم ، أو تنظيم اجتماعى ، مستحيل التحقق ؛ وكان من الطبيعى أن تستمر الحرب فلا تنقطع ، وأن يحل الثأر ، الذى لا هوادة فيه ولا رحمة ، محل التقاضى ، فتسيل الدماء فى كل بقاع الجزيرة العربية .

ذلك هو الضلال الذى أحزن محمدا وأرقه وجعله لا يستطيع الصبر على رؤيته ؛ وهو ضلال ليس فى طوقه إزالته ، لأنه متأصل عميق ، ولأنه عام شامل ؛ وهو جالب ، لا محالة ، على مواطنيه عقاب السماء الرهيب يعصف بهم كما عصف بعاد وثمود ؛ لهذا كان يلجأ الى الأماكن الخالية من بنى البشر ، حتى لا يختلط بهم ، وحتى يزيل من ذاكرته ما هم فيه من ضلال بشع أليم .

* * *

كان يستسلم إذن لرغبة قوية عنيفة تسيطر على نفسه وتتجه به نحو الوحدة والعبادة ، فيسير فى الشعاب الرملية حسب منحنيات الوديان وتعاريجها ؛ أو يصعد الجبال الصخرية ليجلس على قمتها ويترك بصره وخياله يضلان فى الفضاء الجدب القاحل الذى يبدأ عند قدميه ثم يستطيل ويسترسل حتى يختفى فى لا نهائية الأفق .

وسط هذا الفضاء الشاسع المؤثر ، وهذا السكون الرهيب ، وهذا الضوء المتألق ، كان يجلس محمد ساكنا لا حراك به ، تمر عليه الساعات تلو الساعات وهو غارق فى تأمل وجدانى عميق صامت . أجل ، لشدّ ما كان يروعه ويملأ نفسه هيبة هذا المنظر الرائع المتغير الفريد لعناصر الأرض والسماء الخاضعة لقوة خفية مجهولة هى أقوى من أن تقهر ، وأسمى من أن تعرف ، وأعلى من أن تتصور ؛ واحدة لا تعدد فيها ، عالمية ، شاملة . . .

ها هى التلال والصخور ، أمامه ، تتزين ، فى الصباح الباكر ، بالحلل الوردية الشفافة ، وها هى الشمس ، ترسل أول أشعتها على الحصى المنثور هنا

مكتبتنا العربية

وهناك فتصيّره جواهـر تتلألأ ؛ ثم ها هى الشمس فى كبد السماء ، جبارة طاغية ، ترسل بالأكفان البراقة فتنشرها على الأرض ؛ وها هى الأرض هامدة ساكنة مستسلمة كجثة لا حياة فيها ؛ وها هى أمواج الذهب ترسلها الشمس على السكون عند غـروبها ، فى سخاء ، كأنها تريد أن توحى إليه بالأسف لمغربها ؛ ثم ها هو طوق القمر الباهر ، يشبه طوق الحمامة ، تنسجم فيه ألوان الطيف السبعة ، ويتألق فى وسطه القمر الذى يزهو بما يصـدر عنه من شرر يتحول الى الآلاف المؤلفة من النجوم والكواكب .

ها هى الأعمـدة المختالة تتلهى الرمال ، عند هدوء الجو ، باقامتها رانية نحو القبة الزرقاء ، حتى إذا ما ثارت الأعاصير بعثت بالأتربة من بطون الوديان قاذفة بها فى هجوم عنيف على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق ؛ وها هى قوافل الغيم ، تشبه الخـراف البيض ، تطاردها الرياح ، حتى تبعدها عن قمم الجبال التى فوقها نشأت ، فتضطر الى الهجرة دون أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها ؛ وها هى العواصف الممطرة تتفجر شآبيبها الهطالة فتصب على الجبال العريانة أنهارا من المياه ، عنيفة جارفة ، لها دوى ولها زئير .

أمام هـذه العناصر الهائلة العاتية التى لم تجرؤ قط ، رغم جبروتها ، على عدم الخضوع ، ولو شروى نقير ، للقوانين التى تسيّرها والتى فـرضتها عليها القوة السامية العليا . . . لشدّ ما بدا لمحمد ضعف الانسانية وغرورها ! أجل ، وكم من سخريه فى أن تثق هذه الانسانية بالمحسوسات فيقدمَ لها السرابُ صورة براقة من موجات الأثير الفائر ليُشهدها بذلك على غرورها المطلق !

كانت الخلوة ، لمحمد ، أعظم مربّ ؛ فقد صفّت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ؛ ولذلك أطلقت عليها الآثار « صفاء الصفاء » . وتشربت روحه ، رويدا رويدا ، روح الصحراء التى لا تحد ، فبشّرته بعظمة الله اللانهائية . وفى الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه وغمرته فى قوة حتى لقـد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التى انتزعت من كارلايل ، المفكر الانجليزى المشهور ، صيحةَ الإعجاب التى يقول فيها : « حقا إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ، ومن الطبيعى أن تجلب الشدة [illegible]

مكتبتنا العربية

فيستمعوا إليها ، ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها ؛ فكل ما عداها هباء إذا قورن بها » (محمد : البطل فى صورة إنسان) .

* * *

حقا إنه ليدهشنى أن يرى بعض المستشرقين أن محمدا قد انتهز فرصة الخلوة هذه فروّى ورتب عمله المستقبل . بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فوسوس بأن محمدا ألّف فى تلك الفترة القرآن كله . أحقا لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهى خال من أية خطة سابقة على وجوده ، مرسومة على نسق المناهج الإنسانية ، وأن كل سورة من سوره منفصلة عن غيرها وخاصة بحادثة وقعت ، بعد الرسالة ، طيلة فترة تزيد على عشرين عاما ، وأنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتنبأ به ؟

ولكنهم فى جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلا لهذا التحنث الطويل .

سبحانك ربى ! إنهم لو أتيحت لهم الإقامة ، وسط البدو ، فى الصحراء ، فترة تكفى لأن يفهموا حالة التأمل التى يفنى فيها هؤلاء البدو ، جاثين على قمة أكمة ، تاركين نظرهم يضل فى فضاء الله الواسع ، لعرفوا أنها ليست هى حالة البلادة والبلاهة التى يصفها بعض السائحين الذين يغلب عليهم طابع التسلية أكثر من طابع الدقة فى الملاحظة ؛ ولو أتيح لهم ، على الأخص ، أن يتذوقوا بأنفسهم سحر هذا الوجد الذى لا يوصف والذى لا يتبرم حقا إلا لا نهائية الصحراء ؛ وأن يشاهدوا الفوائد الروحية الرائعة التى يكتسبها الإنسان من ذلك ... لو أتيح لهم كل هذا لما وقعوا فى ذلك الضلال المبين .

إن هذا التأمل ليس إلا بوتقة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة لتخرج منها مطهرة صافية ؛ إنه مصنع تكتيل القوى الروحية رغم أنها خفية وأنها لا شعورية ؛ هذه القوى الكامنة التى تتكتل بالمراقبة والتأمل تمكث مستترة مجهولة حتى من هؤلاء الذين تنطوى عليها جوانحهم ؛ وما مثلها فى ذلك إلا كمثل النار الكامنة فى أشجار الغابات ، فإذا ما آثارتها شرارة واحدة اشتعلت ، ملتهبة جارفة صاعدة إلى عنان السماء فتبهر العالم .

مكتبتنا العربية

لا شك أن محمدا لم يدر بخلده ، أثناء تلك الفترة ، شيء مما يزعمه المستشرقون ؛ ولم يرّو فى نفسه أية خطة أو منهج . حقيقة إنه ، فى خلوته ، كان يتأمل ولكنه لم يكن يقدر ؛ ولقد استمر كذلك إلى أن حان الموعد الذى حددته العناية الإلهية لتتجلى عن طريق من اختارته رسولا . صلى الله عليه وسلم ؟

(*) أسلم مؤلف هذا الفصل وحسن إسلامه ، وتسمى باسم ناصر الدين ديني .

وضع الشيء فى غير موضعه

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

من الناس من يضع الشيء فى غير موضعه فلا يكون موفقا فى عمله . وقد أكثر الناس باستهجان هذا الأمر ، وضربوا له الأمثال ؛ فمن أمثالهم فيه : فلان كمستبضع التمر الى هجر . يريدون أن هجرا معدن التمر فمن وضع الشيء فى غير موضعه حمل التمر إليه من بلد آخر .

ومن أمثالهم فيه أيضا : فلانة كملقة أمها الرضاع . ومنه قول ابن هرمة الشاعر :

كتاركة بيضها بالعراء ... وملحفة بيض أخرى جناحا

شبهه بالنعامة تترك بيضها بالعراء وتغطي بيض غيرها بجناحها .

علم المنطق

إحدى وسائل العقيدة عند المسلمين

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف الشيخ المدرس بكلية أصول الدين

فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ لا يجنحون الى شيء ولا يرجحون أمرا إلا وقد قام عندهم مرجحات ماجنحوا إليه، واقتنعوا بمسوغات مارجح عندهم. لا تجد إنسانا مميزا يعتقد شيئا أو يأتي أمرا إلا وقد امتلأت نفسه بعلل ودوافع تبرر له ما اعتقد وتدفعه إلى ماعمل ؛ وهذا ما يسمونه في علم النفس بغريزة التعليل .

هذه الغريزة يستتبعها في الانسان غرائز أخرى ؛ فقد شاءت حكمة الله تعالى أن يهب الانسان قوة التفكير والإرادة ، فلا مناص إذاً من غريزة التعليل .

هذه الغريزة عامة شاملة تصاحب كل إنسان مميز وتلازمه ؛ كما تشهدها في الجامعات ودور العلم تراها بين السوقة تسيطر عليهم في شؤونهم ومعاوضاتهم ؛ كما تراها في هذا الجيل تسمع بها في الجيل الأول « لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » . فهم بأن العدوان إثم وظلم وموضع مقت الله تعالى وغضبه وما له النار ، فامتنع لنتيجة لهذا التفكير أن يبسط الى أخيه يد الإثم والعدوان

تتمثل هذه الغريزة في ربط المقاصد بمباديها ، وإناطة المعلومات بعللها . هذا المظهر العملي لغريزة التعليل يتناول جانبين : جانبي المادة والصورة فيما يقع فيه التعليل . فالعلل التي تدعم بها حكما من الأحكام لا بد أن تكون عللا لذلك الحكم في نفس الأمر ، ولا يمكن أن تنتج الأثر المنشود إلا وقد نسقت تنسيقا خاصا ؛ وهاهنا في الجانبين يعرض للانسان الخطأ والتعثر فيظن الشيء علة وما هو بعلة ، وقد يسوق العلة على وجه لا ينتج المطلوب .

غريزة التعليل فى الإنسان هى الأساس الذى ترتكز عليه شؤونه وتصرفاته ، ليس ذلك فى شؤون الفرد فحسب ، بل تسيطر على شؤون الفرد والجماعة والأمة وحياة البشر جميعا . فالخطأ فى التفكير قد يجر إلى كوارث عالمية . ومامشاكل البشر فى هذه الحياة إلا نتيجة لسوء التفكير والتعليل .

وماتراه فى جيلنا هذا من المحن وألوان البلاء التى تتناول البشرية جمعاء ليس إلا نتيجة محتومة للخطأ فى التفكير وسوء التعليل .

اقتنع قادة الفكر فى مختلف العصور بخطر هذه الغريزة فى الانسان وما تنتجه من خير عميم إذا هى استقامت ، وماتجر إليه من شر مستطير إذا هى انحرفت ، فأخذوا يضعون لها القوانين التى تنير أمامها السبيل ، وتتميز عندها المسالك المستقيمة عن المسالك الملتوية ؛ تلك القوانين هى مايسمونه بالمنطق .

فالمنطق مجموع القوانين التى تنظم التفكير البشرى ، وتحدد السبل التى تنتهى به الى أهدافه المختلفة .

انهج الله سبحانه شرعة التعليل فى الوحى والرسالة إلى عباده ، فأقنعهم بالمعجزات بأن صاحبها نبيه وسفيره ، فوجب الاقتناع بما يحدث به عن الله تعالى .

لم يقف الاسلام فى التعليل عند الإقناع الإجمالى بالوحى والرسالة ، بل تناول قضاياه تفصيلا ، وأحاط كل قضية بما يدعمها من الحجة والبرهان ؛ فقد بلغ التفكير البشرى فى عصر الاسلام شبابه وعنفوانه ، وأضحى يتحمل الإقناع التفصيلى

هذا الإقناع وذلك التعليل الذى سلكه القرآن فى هداية الناس لم يكن ليحتاج منهم إلا لمجرد الفطرة السليمة وقد تنزهت عن الجحود والاستكبار .

وهذه نماذج من الإقناع القرآنى نتلوه عليك :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ... »

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد. رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ؛ كذلك الخروج » .

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون . يُنبت لكم به الزرعَ والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » .

« أفلا ينظرون إلى الابل كيف خُلقت ، والى السماء كيف رُفعت ، والى الجبال كيف نُصبت ، والى الأرض كيف سُطحت » .

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » .

« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم » .

« إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا » .

« إن مَثَل عيسى عند الله كمثل آدم ؛ خلقه من تراب » .

« لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربى مبين » .

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » .

« وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض »

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

« أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .

مكتبتنا العربية

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » .

« كما بدأكم تعودون » .

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

« ألا يعلم من خلق » .

ترى فى هذا الإرشاد القرآنى ألوانا من الحجة تملأ الفطرة الطاهرة من الجحود والإباء إيمانا بما دعا اليه ، ويقينا بما طلب الايمان به ، يستوى فى ذلك ذكى الناس وغبيهم ، عالمهم وجاهلهم ،فيلسوفهم وعاميهم .

استمر التعويل فى الاقناع الاسلامى على سلامة الفطرة دون ما حاجة إلى قوانين النظر وقواعد المنطق ، عصر النبى والخلفاء الراشدين من بعده صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ؛ فقد امتازت العقيدة الاسلامية فى هذه الحقبة بالبساطة يفهمها الناس واضحة محددة يواتيها دليلها كما هدى الكتاب المبين فى سهولة ووضوح . فالله تعالى عالم، معناه لا يغيب عنه شىء ولا يجهل شيئا، ودليله واضح كما أرشد اليه الكتاب « ألا يعلم من خلق » ، وما جاء فى القرآن من المتشابه يفوضون فيه الأمر اليه تعالى مع تنزيهه عما يوهمه ظاهر اللفظ .

لم ينعم الناس بهذه البساطة وذلك الوضوح فى عقائدهم زمنا طويلا ، بل اكتنفها الغموض والتعقيد نتيجة ما بحث النظار وتعمقوا ، كما ترى فى قولهم : عالم بذاته أو بصفة زائدة على ذاته ، وهل السمع والبصر عين العلم بالمسموع والمبصر أم إدراك آخر غير العلم بهما ؟ وهكذا أثار البحث كثيرا من الخلافات فتشعبت المسائل وتعددت المذاهب ، وليس فى القرآن ما يحسم هذا النزاع فانه لا يحفل بأمثال هذه الخلافات ، بل جاء للناس كافة يدعوهم الى عقائد بسيطة محددة واضحة لا تخفى على غبيهم ، وأرشد الى الحجة على هذه العقائد فى بساطتها ، فاضطر كل فريق من المتخالفين أن يطلب البينة على رأيه من معين آخر .

فى هذا الطور من حياة العقيدة الاسلامية كالطور الأول ، لم يتخذ

مكتبتنا العربية

المسلمون المنطق سبيلا الى مطالبهم ، ولا سلاحا شرعوه فيما بينهم ، فلم يكن قد شاع عندهم ، وإن يك قد تسلل الى ديارهم .

توجس المسلمون أول الأمر خيفة من المنطق ، وتحاشوا الاشتغال به ، وحرمه كثير منهم إشفاقا على عقائدهم ؛ فقد كان مملوءا بالتطبيق والأمثلة الفلسفية التي تخاصم العقيدة ، إلا أنهم رأوا أنفسهم بعدُ مضطرين الى الاستعانة به لاعتبارات شتى .

فأولا : تبين المسلمون أن المنطق آلة يسبر بها غور الأدلة وما شاكلها من الحدود والمعرفات لتمييز صحيحها من فاسدها ، وأنه ميزان يحتكم إليه في سائر الأبحاث والمبادئ ، كما يحتكم إليه الفيلسوف يصح أن يحتكم إليه المتكلم والأصولي والفقيه وسائر الباحثين ؛ وأما ما فيه من النظريات الفلسفية وما شاكلها فإنما هي مجرد أمثلة للإيضاح لا يجب التزامها ، فإن التمثيل والإيضاح لا يجب أن يكون من مادة بعينها .

وثانيا : شاع المنطق في البيئة الإسلامية بحكم الفتح الاسلامي ؛ فقد غزا المسلمون بلادا وأمما كثيرة كالهند وفارس والعراق ومصر والشام والمغرب والأندلس ، وقد كانت هذه البلاد مملوءة بالحضارة المختلفة يونانية وفارسية وهندية ، وكان الميزان الذي يحتكمون اليه في بحوثهم هو المنطق وقوانينه ، فاحتكم اليه المسلمون كميزان توزن به المعلومات أيا كان لونها .

وثالثا : خاصم الإسلامَ كثير من الأديان والملل كاليهودية والنصرانية والدهرية ومذاهب البراهمة والفارسيين وكثير من النظريات الفلسفية ، وكانت هذه الخصومات متسلحة بالمنطق وقوانينه ، فاضطر المسلمون الى دراسة هذه المذاهب ومناقشتها دفاعا عن دينهم وعقائدهم ، ولا مفر لهم آنئذ أن يدرسوا المنطق كي يحاربوا خصومهم بنفس سلاحهم ، ويحتكموا وإياهم الى ميزان حاز ثقة الجميع ؛ وهذا ما تميز به كلام المتأخرين من علماء التوحيد كما تراه في كتب الرازي والغزالي والبيضاوي والآمدي والعضد والسعد ؛ فقد خلطوا علم الكلام بكثير من الفلسفيات والطبيعيات والرياضيات مما يظن أنه يمس شيئا من الاسلام

مكتبتنا العربية

وأصوله، وأجهدوا أنفسهم فى نقده وإبطاله على قانون المنطق، فنرى فى أساليبهم القياس الحملى والشرطى والاستثنائى، ومقدمة صغرى وكبرى، ومنع الصغرى أو الكبرى أو الاستثنائية، ومنع التقريب، إلى آخر ما نسمع به فى المنطق واصطلاحاته، حتى لقد توغل كثير من المتكلمين فصدروا كتبهم بجملة قيمة من قوانين المنطق كالطوالع والمواقف، حتى إن الغزالى يفرض فى مقدمات كتابه «تهافت الفلاسفة» على القارئ أن يدرس المنطق أولا ؟

نصيحة الآباء للأبناء

قال عمر بن عتبة: لما بلغت خمس عشرة سنة، قال لى أبى: يا بنى قد تقطعت عنك شرائع الصبا، فالزم الحياء تكن من أهله، ولا تزايله فتبين منه، ولا يغرنك من اغتر بالله فيك فيدحك بما تعلم خلافه من نفسك، فانه من قال فيك من الخير ما لم يعلم إذا رضى، قال فيك من الشر مثله إذا سخط، واستأنس بالوحدة من جلساء السوء تسلم من غب عواقبهم.

وقال عبد الملك بن مروان وهو أمير المؤمنين لبنيه:

كفوا الأذى، وابذلوا المعروف، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سئلتم، ولا تلحفوا إذا سألتم، فانه من ضيق ضيق عليه، ومن أعطى أخلف الله عليه.

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله فى غيبة غابها:

أما بعد، فان من اتقى الله وقاه، ومن اتكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه؛ فاجعل التقوى عمار قلبك، وجلاء بصرك، فانه لا عمل لمن لا نية له، ولا خير لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له.

وقال العتبى: مررت بمتبتل باك، فقلت ما يبكيك؟ قال: أمر عرفته وقصرت عن طلبه، ويوم مضى من عمرى نقص من أجلى ولم ينقص له أملى.

علم النفس الاجتماعى

لحضرة الأستاذ ابراهيم جمال الدين

المدرس بكلية أصول الدين

تمهيد فى معنى علم النفس :

لكلمة علم النفس معانٍ يختلف بعضها عن البعض الآخر ، وقد لا يخلو من الفائدة أن نعنى ببيانها قبل الخوض فى تفاصيل هذا العلم الذى نعتبر جديدا من ناحية طرق البحث فيه .

فهى معربة عن الكلمة الافرنجية « Psychologie » وهذه بدورها بحسب أوضاع اللغة الاغريقية مركبة من كلمتين : Psyhee ومعناها روح ، و logos ومعناها معرفة ؛ وبناء على ذلك يكون معنى الكلمة «معرفة الروح» . ولكن ما معنى الروح ؟ وهنا تختلف المعانى وتختلف باختلافها معانى علم النفس .

فمن معانيها مجموع الصفات النفسية التى يتكون منها أخلاق المرء وشخصيته التى تميزه عن غيره من سائر الأفراد : كالعواطف والوجدانات ، والغرائز والعادات وغيرها من الصفات التى تعرف بالخبرة العادية ؛ ومن هذا القبيل التعبير بقولهم : روح نبيل ، وروح وضيع .

وهذا النوع من علم النفس قديم تدعو إليه حياة الألفة والاختلاط ؛ فالانسان مجبول بحكم الحياة الاجتماعية على تعرف نفسية من يعيش بينهم من الناس . وقديما قيل : إن من أحب الأشياء الى الانسان معرفة الانسان ليسلك سلوكا مناسبا لهذه المعرفة . ويذهب بعض العلماء الى وجود هذا النوع عند الأطفال وعند الحيوانات .

مكتبتنا العربية

ويشمل هـذا المعنى التحليلاتِ النفسيةَ التى يصورها براع الكتاب الروائيين فى رواياتهم الأدبية أو الشعرية .

ففى هذه الروايات يجـد القارىء نوعا رفيعا من التحليلات النفسية يراه بعض العلماء أسمى مما تتضمنه الكتب المؤلفة فى علم النفس .

ومن معانيها أيضا ذلك الجوهر غير المادى الذى يقابل الجسم ، والذى تصدر عنه الإحساسات والعواطف والوجدانات . ومباحث هذا النوع من المعرفة النفسية تدور حول معضلات وجود الروح وعـدم ماديتها وخلودها واتصالها بالجسم وعلاقتها بالعالم والملأ الأعلى . وهذا النوع قديم أيضا اتجه إليه التفكير الانسانى منذ أقدم العصور ، وممن بحث فيه فلاسفة اليونان ، وفى مقدمتهم سقراط الذى نادى قديما بمبدئه المشهور : اعرف نفسك بنفسك . ونسج على هذا المنوال فلاسفة الاسلام الذين قامت فلسفتهم على فلسفة الإغريق. وللرئيس ابن سينا فى النفس قصيدة مشهورة مطلعها :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعـزز وتمنع

ويطلق على هذا النوع من المعرفة النفسية « علم النفس الميتافيزيقى » نسبة الى الميتافيزيقا — ما وراء الطبيعة — فان أبحاث ما وراء الطبيعة تنحصر فى دراسة ما استتر من الحقائق وراء الظواهر المحسوسة . كما يطلق عليه أيضا « علم النفس العقلى » ؛ فان العقل وحده هو الذى يعول عليه فى حل معضلات ما وراء الطبيعة دون الاعتماد على شىء من الملاحظة العلمية والتجربة .

لم يبق من معانى الروح إلا ما يراه المحدثون الذين لا يرون فى الطبيعة إلا ظواهرها دون الالتفات إلى مصدر هذه الظواهر . فليس للروح عندهم من معنى إلا الظواهر النفسية التى تدور بخلد الإنسان ويشعر بها فى قرارة النفس وتتوارد على خاطره بدون انقطاع . ففى كل لحظة من اللحظات نشعر برغبات وأمانٍ ووجدانات وانفعالات مختلفة ؛ وأحيانا نسبح فى أحلام اليقظة ، أو نركز انتباهنا فى فـكرة معينة ، أو نتذكر ما مضى من الحوادث ، أو نتخيل شيئا من الحوادث المستقبلة ؛ كل هذه الخواطر التى يشعر بها المرء

مكتبتنا العربية

دون أن يشاركه فى الشعور بها أحد من الناس هى ما يطلق عليها الظواهر النفسية ؛ وهى موضوع علم النفس العلمى ؛ وهى التى اتجهت اليها أنظار المحدثين بغية شرحها لاستنباط ما تخضع له هذه الظواهر من القوانين العامة الصالحة لكل زمان ومكان . يقول ريبو Ribot : « إن علم النفس العلمى إنما هو علم تجريبى ليس له ما يبحث فيه غير ظواهر النفس من إرادة وتفكير وتصور ووجدان وانفعال لمعرفة ما تخضع له هذه الظواهر من القوانين ، ولا يُعنَى بالبحث فى حقيقة النفس وعلاقتها بالجسم وأزليتها وعدم ماديتها وخلودها وغير ذلك من البحوث العقلية التى اختصت بها فلسفة ما وراء الطبيعة » .

فاذا كانت الأنواع المتقدمة قديمة ، ولا تعتمد على طريقة علمية من طرق البحث ، فان هذا النوع جديد ويعتمد على الملاحظة والتجربة ، شأن جميع العلوم الاستقرائية الطبيعية .

غير أن هذا الرأى لم يكن متفقا عليه من جميع العلماء ؛ بل نرى بعضهم يقابله بكثير من التحفظ . ونرى « أوجست كنت » يحذفه من قائمة العلوم مدعيا أن معرفة الإنسان ليس لها مصدر إلا علم التشريح أو علم الاجتماع ، وأن الملاحظة لاتستطيع أن تدرك الإنسان إلا فى جسمه أو فى المجتمع الذى يعيش فيه حيث يعمل ويفكر ، وهنالك يكون للبحث موضوع محدود وطرق مضبوطة يمكن الاعتماد عليها فى استنباط القوانين .

أما تحليل الروح مباشرة فانها تعرض الباحث إلى الالتجاء إلى أوصاف لانهاية لها ، فلا يكون هناك موضوع ولا طريق للبحث العلمى ، ولا قوانين علمية يمكن أن يتكون منها علم نفس علمى بمعنى الكلمة .

ولا شك أن الرد على هذا الاعتراض إنما يكون ببيان موضوع هذا العلم بغاية الضبط ، وطرق البحث فيه وقوانينه العامة .

وذلك ما سنعنى به فى المقال الآتى .

البيئة وأثرها فى الادب

لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد عونى المدرس بمعهد القاهرة

أدبُ المرء مرآة نفسه ، وصورة صادقة من عقله وحسه ؛ فاذا أخصبت قريحته ، ونضج عقله ، ورق إحساسه وصقل طبعه ، واغترف من معين العلم الصافى ، ومنابع الخيال الرفيع ما شاء الله أن يغترف ، كان أدبه من الطراز الممتاز معنى ومبنى ، وكان خياله ممتعا خصيبا يروى ظماء النفوس ، ويغذى خاص العقول ؛ ومتى أجدبت قريحته ، وضمر عقله ، وجمد إحساسه ، ونأى عن مشارع العلم فمه ، كان أدبه غثا ، هزيل المعنى ، سقيم المبنى ، لا يغنى فتيلا ، ولا يشفى غليلا .

ومنزع الأدب ما يحيط بالمرء من مظاهر حياته ، وما يكتنفه فى مغداه ومراحه ، مما يقع تحت حسه وبصره .

وليس مَن شبَ حيث تطيب موارد العيش تحت سماء صافية ، وسُحب هامية ، وحيث تتلاقى منابع العلم ، وتتنوع منازع الخيال ، ومباهج الحضارة ، كمن نشأ فى حجر الفطرة ، ودرج فى كنف العيش الجاف ، فوق بقعة لا عهد لها بمراتع الحضارة والنضارة ، ولا بمشارع العلم ، ومنازع الخيال الخصيب ؛ فان الأول كمن يغرف من بحر ، والثانى كمن ينبحت من صخر .

كذلك أدب كل أمة قطعة من حياتها ، يقتطعها الأدباء مما ينتابها ، ويلم بها من عوادى الدهر ، وما يتمثل فى مجتمعها من صور الحياة ؛ لذلك يختلف الشعراء والكتاب فى وصف الحياة ، ونظرهم اليها ، وتصورهم لها ، تبعا لاختلاف بيئاتهم التى نبتوا فيها ، وانتظموا فى سلكها ؛ فكل بيئة تصبغ أبناءها بعاداتها وأخلاقها ، وتطبع فى نفوسهم وخيالاتهم من صورها وألوانها ما قد يختلف ما تطبعه من العادات والأخلاق ، وتصبغه من الصور والألوان فى نفوس آخرين بيئة أخرى .

مكتبتنا العربية

فالإنسان إذاً ابن بيئته التى نبت فيها ، ورَهْنُ عشه الذى درج منه . وباختلاف البيئة — كما قلنا — يتفاوت الناس فى عقولهم وأخلاقهم ومداركهم وتصوراتهم .

وإن أثر البيئة لينجلى لك واضحا فى الأدب العربى الجاهلى شعره ونثره . فهاك امرأ القيس يشبّه فرسه فى سرعة جريه بجلمود من الصخر هوى به السيل من شرف عال ، فيقول :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطّه السيل من عل

رجع امرؤ القيس الى مخيلته يستوحيها ذلك الشبيه فلم يفز منها بغير صورة الصخر يدفع به السيل من شاهق لأنها التى أهدتها العين الى مخيلته ، فلم تعرف سواها شبيها وافيا بالغرض .

وها هو ذا يشبّه سقوط اللبد عن ظهر فرسه لملاسته بالصخرة الملساء ينحدر بها السيل ، فيقول :

كميت يزلّ اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

فتراه لا يعدو فى تمثيله هذه الصورة عينها يتخذها منزعا لخياله ، ذلك لأنها هى التى روتها المتخيلة نقلا عن العين .

وهل تراه يشبّه الليل فى طوله بغير ما عهد من حيوان برك وعدد مداعده بين أطرافه عن صلبه إذ يقول :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وكذلك كان الخيال فى الجاهلية ضيق الدائرة ، محدود الأفق ، قريب المنزع ، مشتقة صوره من المحسات التى تحيط بهم . وماذا يرى فى مشاهد البيد ، عصر الفطرة ، غير الصخور والأطلال ، والرمال والأدحال ؟ ولا غرو فإن رجلا كامرئ القيس نشأ فى الصحارى والقفار ، ودرج بين الدمن والأطلال ، وشب لا يرى من مظاهر الكون غير سماء تظله ، وأرض تقله ،

وحيوان يغذيه ، وخيام تؤويه ، لا ينطق بغير ما رأى ، ولا ينطبع فى نفسه إلا ما يقع تحت حسه .

لهذا كان الشعر أقرب الى السذاجة ، ووصف الواقع منه الى التأنق والخيال ، تبعا لما كانوا عليه من سذاجة العيش وفطرية الحياة .

ثم اسمعه وهو يقول واصفا متخيلا :

وفرع يزين المتن أسود فاحم ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات الى العلا ... تضل المدارى فى مثنى ومرسل

الى أن قال :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها ... وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم ترحلوا ... لدى سمرات الحى ناقف حنظل

فإنك حين تقرأ هذا الشعر لتحس جفوة البداوة ماثلة نصب عينيك ، وحرارة رمضائها ملء شدقيك ، وكأنك تضرب فى فلاة وعرة المسالك ، شائكة الجنبات ، لا يكاد مجتازها يسلم من رهق الوعثاء ، واجتياز الكأداء ؛ ذلك لتأثر شعراء ذلك العهد بمظاهر الغلظة والجفاء البادية على طباعهم ، ونظم اجتماعهم ؛ فإنك لا ترى فى ألفاظهم وأساليبهم وتخيلاتهم سوى صور للحياة الطبيعية التى نشأوا فيها ، وإذا هى صورة بدوية لا تحوى من مناظر الطبيعة غير ما تحويه البادية من صحار ورمال ، وجبال وأطلال ، وما الى ذلك مما ذكره الشاعر من الأباعر والآرام . ومن أين كان يتيسر لامرئ القيس أن يعطينا من صور الحياة الطبيعية التى نشأ فيها ، وشب عليها ، غير ما طالعناه فى شعره ، وقد عاش فى الجاهلية تكتنفه الفلوات والمفاوز ، وتحتويه الخيام والأكواخ ، فلم يكن ليقع نظره إلا على مناظرها الموحشة ؟

واليك حسان بن ثابت يمدح ملوك غسان ، فيقول :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل ... بين الجوابى فالبضيع فحومل
فالمرج مرج الصفرين فجاسم ... فديار سلمى درسا لم تحلل
دمن تعاقبها الرياح دوارس ... والمدجنات من السماك الأعزل

مكتبتنا العربية

فهو شعر — كما ترى — تغلب عليه كزازة العبارة وجفوتها تبعا لما كان عليه الشاعر من جفاء الحياة وجفافها ، وما كان يحيط به من مظاهر الغلظة والخشونة .

ثم اسمعه وقد ذاق حلاوة الايمان ، ونهل من عذب معينه وصافيه حتى صقل طبعه فصار شعره يجرى سلاسة وعذوبة ، بعد أن كان يتعثر جفاء ووعورة ، قال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سننا للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق — فاعلم — شرها البدع

فهل تسمع لهذا اللفظ غير عذوبة الجرس ، وهل ترى فى طبعه غير صفاء الديباجة ؟ وأى شعر ذلك الذى أول ما تلقاه يفتر لك ، ويتلقاك بصدره ، ويفتح لك عن قلبه ؟ ذلك هو شعر حسان مادح رسول الله عليه الصلاة والسلام . وهنا تستطيع أن تلمس بيدك موضع الفرق بين قوليه فى جاهليته وإسلامه ، وتدرك — لأول وهلة — أى الشعرين قيل فى أى العصرين .

وفيما يلى من قصة الشاعر البدوى تلمس أثر البيئة واضحا ، وتعرف كيف يكون إذعان الأدب وخضوعه لسلطان البيئة ، [illegible] ويوحى [illegible] من التصورات والمعانى :

قدم أحد شعراء البادية على المتوكل الخليفة العباسى ، ومدحه بقوله

أنت كالدلو لا عدمناك دلوا من كثير العطا قليل الذنوب
أنت كالكلب فى حفاظك للود وكالتيس فى قراع الخطوب

استوحى الشاعر حافظته ، وطلب اليها المعونة فى وصف الممدوح بالوفاء والإقدام من طريق التخيل ، فلم تسعفه بغير صورتى الكلب والتيس يتخذهما منزعا لخياله ؛ إذ لم ترو الحافظة عن العين فى هذه البيئة الجافة غير ما أوحت

به اليها من صورتى هذين الحيوانين ، فلم ير الشاعر بدا من أن يجعلهما مأخذ تمثيله غير آبه بما فى اللفظ من نبو الطبع وجفافه ، وبُعده عن مواطن اللياقة بمقام الخلافة. وما حيلة ذلك الشاعر، وقد شب فى بيئة ضاقت بها مراتع الخيال ، وأقفرت من عذوبة المنزع الخصيب ؟ ولقد همّ بعض أعوان الخليفة بقتله ، لقاء ما أتى به من قبح التمثيل ، وسماجة التصوير . فقال الخليفة : خل عنه ، فذلك ما وصل اليه علمه ومشهوده ، وقد توسمت فيه الذكاء ، فليقم بيننا زمنا ، ولن نعدم منه شاعراً مجيداً ؛ فما إن أقام بضع سنين فى سعة عيش ، ورفاهة حال ، بين ربوع بغداد ذات الحضارة والترف ، ومثابة العلم والعلماء ، حتى تراصف فى حافظته من الصور والمعانى ما رقت به حاشية طبعه ، وجعل قريحته تنسج من بديع المعانى أثوابا قشيبة ، وتصوغ من روائع الأخيلة قلائد الأجياد ؛ فهو الذى يقول بعد :

يامن حوى ورد الرياض بخده ... وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذى جردته ... عيناك أمضى من مضارب حده
كل السيوف قواطع إن جردت ... وحسام لحظك قاطع فى غمده
إن رمت تقتلنى فأنت مخير ... من ذا يعارض سيداً فى عبده ؟

فشتان ما بين النسيجين ، وناء ما بين الصياغتين ! وتستطيع الآن أن تضع يدك على موضع الروعة ، ومنشأ السحر من هذا البيان ؛ ذلك أنّ تردد النظر فى مظاهر المدنية يملأ الحافظة من مختلف الصور ، وشتى المعانى ، ويجعل العربى أملك لأعنة القول ، وأقدر على إبداع التصور ، حتى إذا ماسنح له معنى اقتضى الحال إبرازه فى معرض الخيال لم يعوزه ، متى لجأ إلى حافظته يستوحيها ، أن تمده بما يكون عونا له على صياغة المعنى ، وإفراغه فى القالب الذى يريد ، ويكون حينئذ أقوى استعداداً لصناعة التخيل ممن كانت بضاعته مزجاة ، وحافظته فى إملاق .

وهل ما سمعناه من أغاريد الأندلسيين سوى نفثات الأزاهير والرياحين ؟ وهل هو غير هديل الأطيار فى ظلال جنات تجرى من تحتها الأنهار ؟ وإلى أى حد يبلغ بك التأثير حين تسمع قول ولادة :

مكتبتنا العربية

حللنا دوحة فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم
يرد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

ألا يخيل إليك أنك تخطر بين الحدائق والأنهار ، وتشتم خلالها عبير الأزهار ، ونسائم الأسحار ؟ وماذا كان ينظم الأندلسيون غير ما أملت عليهم طبيعة بلاد قيل فى وصفها :

لله دركمُ يا أهل أندلس ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركم ولو تخيرت ، هذى كنت أختار

هكذا يكون سلطان البيئة على الأدب ، وهكذا يكون خضوع الأدب لسلطان البيئة فى مختلف العصور والمواطن ؛ فمن خشونة لفظ وجفاء معنى فى الجاهلية ، إلى رقة وطلاوة وحسن صياغة عصر الهداية ، إلى مناحة عن الطوائف المذهبية ، والتوفر على المهاجاة عصر تفرق الكلمة وتشعب الفرق ، الى معاطاة المجون والخلاعة لدرجة الإسفاف عصر اختلاط العناصر ، الى ركود واضمحلال وتقلص بعد سقوط بغداد ، ثم الى وثبة ونهوض بعد طول الخمول والخمود فى العصر الأخير . والأدب فى كل هذا هو المترجم الصادق ، والمحدث الأمين عن تلك البيئات التى تعاقبت عليه فى مختلف العصور .

حفظ المال

قال قيس بن عاصم : يا بنى عليكم بحفظ المال فانه منبهة الكريم ، ويستغنى به عن اللئيم ، وإياكم والمسألة فانها آخر كسب الرجل

وقال شاعر :

غنى النفس يغنيها إذا كنت قانعا وليس بمغنيك الكثير من الحرص
وإن اعتقاد الهم للخير جامعا وقلة هم المرء يدعو الى النقص

الاسلام فى جنوب السودان

ومجهود الأزهر فى نشره

لفضيلة الأستاذ الشيخ العوض محمد أحمد سماعة

مبعوث الأزهر الى جنوب السودان

يمتد السودان من حلفا شمالا إلى يوغندا جنوبا ، أو من خط الدرجة (٢٢) من العرض الشمالى إلى خط الدرجة (٤) من العرض الشمالى . وهو الجزء الأعلى لوادى النيل .

وهو ينقسم إلى السودان الشمالى ، وهو من حلفا حتى بعيد الجبلين أو خط (١٣) عرضا ، وفيه أم درمان والخرطوم ويمتد عرضه شرق النيل حتى البحر الأحمر ، وغرب النيل حتى حدود دارفور الغربية . وهذا القسم كله أهله مسلمون يتكلمون العربية . وليس كلامنا فيه ، وإنما كلامنا فى السودان الجنوبى الممتد من الجبلين أو خط (١٣) عرضا إلى حدود السودان جنوبا عند الخط (٤) من خطوط العرض الشمالى . وهذا القسم عدا أطرافه الشمالية يسكنه السودانيون الزنوج ، وهم قبائل كثيرة تزيد على الستين قبيلة أكثرها عديداً الدينكا ثم الزاندى ، ويتكلمون بلغات كثيرة [illegible] هذه القبائل . وقد تشترك قبيلتان أو ثلاثة فى لغة واحدة . ولغة التفاهم السائدة بين هذه القبائل على اختلافها هى اللغة العربية خصوصا فى المدن والقرى . وهو أمر عجيب يستوقف النظر ، ويبشر بمستقبل الاسلام فى هذه البلاد وقد بذلت جهود عظيمة لحملهم على لغة أخرى عامة غير العربية ، ولا نذيع سرا إذا قلنا إن هذه الجهود قد فشلت .

ويرجع سبب وجود اللغة العربية بين هذه القبائل — على قلتها — فى الأحراش وداخل الغابات الكثيفة — إلى ارتياد التجار العرب من شمال السودان . فالثابت تاريخيا أن هذا الجزء الجنوبى كان مجهولا عند أهل شمال

مكتبتنا العربية

السودان ، تبعه غيرهم من الأجانب ، إلى أزمان قريبة ، إلا عند قليل من التجار الذين كانوا يرتادونه لتجارة العاج « سن الفيل » وتجارة الرقيق . وكان لهؤلاء التجار العرب مراكز مختلفة فى هذه البلاد ، هى مصدر نشاطهم وملتقى مندوبيهم الوافدين من داخلية البلاد وغاباتها ؛ وكانت لهم بسبب ذلك ثروات طائلة ، وبحكم لغتهم كانوا سببا فى نشرها ؛ فقد تربى على طول المدة كثير من صغار أهل البلاد منذ نعومة أظفارهم على معرفة العربية ، وقاموا بعد ذلك بمهمة الترجمة بين هؤلاء العرب وبين أهل البلاد من الزنوج . وبلا شك كان لهذه العربية والحالة هذه مصدر ربح لمن يتعلمها ، وتبع ذلك أن أسلم بعض الناس لصلتهم بأولئك العرب الذين كانوا يمثلون المال والعلم والدين والآداب الفاضلة والأذواق الجميلة ، والذين يراهم أهل البلاد مثلا أعلى للانسان الكامل

وهذه الحالة كانت سببا للاتصال بهم ، والأخذ عنهم ، والتطبع بطبائعهم ، والاعتقاد بعقائدهم ؛ فكان هؤلاء التجار مصدر وجود الاسلام فى هذه البلاد الوثنية ، وإن كان قليلا فى حد ذاته بالنسبة لعدد السكان .

وفى سنة ١٨٦٩ عين الخديو إسماعيل صموئيل بيكر باشا ليكون مديراً عاما على مديرية خط الاستواء . وقد وصل بيكر بالجيش المصرى فى ١٥ إبريل سنة ١٨٧١ إلى (غندكرو) واتخذها عاصمة لمديرية خط الاستواء . « وتقع غندكرو على بضع أميال شمال جوبا التى اتخذت عاصمة للمديرية الآن . وتقع جوبا فى درجة (٥) من العرض الشمالى » . وبعد مدة نقلت العاصمة من غندكرو وهى بالضفة الشرقية للنيل ، إلى الضفة الغربية المقابلة لها بجبل اسمه (لادو) ، لأنه كان أصح من غندكرو . وقد تغلغل الجيش إلى داخلية البلاد حتى أخضع جميع القبائل . وفى خلال هذه الأعمال كان الاسلام ، وبجانبه العربية ، يسير بمعطه بين أهل البلاد .

وقد اختارت الحكومة كثيراً من أهل البلاد حيث انتظموا فى سلك الجندية ، والجندية صلة وثيقة فى السراء والضراء بين الناس ، وسبب قوى من أسباب تشابه العادات والأخلاق [illegible]

مكتبتنا العربية

جديدة للمسلمين فى هذه البلاد ، وقد تمسكوا بدينهم حتى بعد ذهاب الحكم المصرى بقيام المهدية ؛ ولا يزال نسلهم متمسكا بدينه ومعتزا به وبآبائه الجنود المسلمين . ويعرف أبناء هذا النوع الآن باسم (الملكية) بفتح اللام ، ويوجدون بالمدن والقرى بكثرة ؛ وهم كهمزة الوصل بين أهل الشمال وأهل الجنوب الذين لم يدخلوا فى الاسلام بعد . وقد استمر دخول الاسلام مدة حكم المهدية ، وقد كان وصول عرب الشمال أكثر من ذى قبل بحكم الفتح . ثم جاء الحكم الحالى (الحكم الثنائى) بين مصر وانجلترا ، وفى هذا الحكم الأخير نشطت أعمال الإرساليات التبشيرية بالدين المسيحى ، وانتشرت فى طول البلاد وعرضها ، وأنشئت الكنائس والمدارس والمستشفيات فى المدن والقرى والأحراش ورءوس الجبال ، وصرفت الأموال الطائلة ، وقد وجدت هذه الإرساليات الحماية والعون المادى والأدبى من السلطات المحلية .

وقد استمر سير الإسلام وانتشاره بواسطة عرب شمال السودان من تجار وموظفين ، ولكن كان سيراً بطيئاً .

ولولا قابلية البلاد للاسلام ، وسماحة الاسلام وبساطة تعاليمه ، وميل أهل البلاد لبنى جنسهم من أهل شمال السودان ، وروح التقارب بينهم ، ووجود اللغة العربية كأداة للتفاهم العام بين القبائل ، لولا هذه الأسباب لقضى على الاسلام فى هذه البلاد ، بفضل تلك المجهودات العظيمة التى تبذل من منافسيه .

وفى كل هذه الأحوال التى ذكرناها لم تقم هيئة منظمة لنشر الإسلام والدعاية له ، ولم يكن كما ذكرنا غير المجهودات الفردية .

ويمكن أن يعتبر ما ذكرناه عرضاً عاماً موجزا غاية الإيجاز عن تاريخ الإسلام فى هذا السودان الجنوبى .

* * *

أما حالة الإسلام الآن وحالة المسلمين فى الجنوب ، فيمكن أن نجمل القول فيها فيما يأتى :

مكتبتنا العربية

ينقسم السودان الجنوبى إلى مديريتين ؛ وهما مديرية أعالى النيل وعاصمتها (مَلَكال)؛ والثانية مديرية خط الاستواء وعاصمتها (جُوبا)، وهى حتى الآن تشمل مديرية بحر الغزال سابقا التى كانت عاصمتها (مدينة وَاوْ) . وحالة الإسلام والمسلمين يختلف الحديث عنها فى المديريتين ؛ أما مديرية أعالى النيل ففى شمالها كثير من العرب وهم مسلمون بطبيعة الحال ، وأشهر مدنها (ملكال) (والرَّنك) . وملكال العاصمة مظهرها إسلامى وأهلها أو أغلبهم مسلمون ، ويوجد بها تفتيش الرى المصرى ، وفيها محكمة شرعية يتنقل قاضيها بين ملكال والرنك ، وتوجد المساجد فى مدنها وبعض قراها ، وفيها أيضا كثير من الكنائس والنشاط المسيحى .

أما مديرية خط الاستواء فيختلف الحال فيها ؛ فلم يكن فيها قبل بضع سنوات شىء من المساجد إذا استثنينا مدينة واوْ لكثرة العرب فيها . ولما نقلت عاصمة المديرية من (مَنْجَلا) الى (جوبا) فكر المسلمون فى العاصمة الجديدة فى إنشاء مسجد لهم ، وترددت الفكرة بين الناس ، حتى ظهرت الى عالم الوجود فى سنة ١٩٣٨ حيث وضع الحجر الأساسى لجامع جوبا بعد أن اشترك السودان ومصر فى الاكتتاب له . وقد اشترك الأزهر فى التبرع لإنشائه ، وكان للأمير عمر طوسون رحمه الله فضل مشكور فى نجاح ذلك ، تعاونه لجنة جامع جوبا بمصر التى يرأسها الآن سعادة فؤاد أباظة باشا ، والتى ما زالت تقوم بالعون المادى والأدبى للمجهود الإسلامى بجوبا .

وقد تمّ افتتاح جامع جوبا فى يوم الجمعة ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ و ١٤ / ٧ / ١٩٣٩ م . ولتصوير فرح المسلمين خارج المديرية ، بَلْهَ داخلها ، بقيام هذا الجامع نقول : إنه حضر هذا الافتتاح (٢٧٠) شخصا من جهات مختلفة من يوغندا المجاورة للسودان ، وقد ورد على لجنة الجامع (٦٧) تلغرافا بالتهنئة من السودان ومصر . وأصدرت جريدة النيل بالخرطوم فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٩ عددا خاصا بجامع جوبا حلّت صدره بصورة الجامع .

ويعتبر بناء جامع جوبا من الأحداث الهامة فى تاريخ الإسلام فى جنوب السودان ، وقد دلت الأحوال بعد بضع سنوات على المنافع الإسلامية التى

مكتبتنا العربية

ترتبت على إنشائه ، وهى التى ستكون موضوع حديثنا بعدُ ، مع الاختصار والاعتراف فى نفس الوقت بعجزنا وعدم قدرتنا على التحدث بكل ما نعلم ، فلكل مقام مقال ، ورب قول لم يجىء وقته ، ولكننا على كل حال سنشير بما فيه الدلالة على حالة الاسلام والمسلمين فى هذه البلاد :

رأى الأزهر الشريف أن يحمل مشعل الاسلام فى هذه الجهات المظلمة بليل الوثنية ، فاختار أحد علمائه ليكون مبعوثا له بجنوب السودان ، وجعل مقره مدينة (جوبا) وهو كاتب هذه السطور . وقد وصل المبعوث الى جوبا فى أول ربيع الأول سنة ١٣٥٩ و ٩ إبريل سنة ١٩٤٠ ، ورتب الدروس والمواعظ بالجامع ، وكان فرح المسلمين به عظيما . ولذلك التف حوله المسلمون فى جوبا وفى المدن القريبة منها ، وكانوا كلهم أيادى عاملة لخدمة الاسلام ، ونشر فضائله بين الناس ، ولم يمض على ذلك أشهر حتى دخل مئات من الناس فى دين الاسلام على يديه ، ولا زال يدخل فى الاسلام من هداه الله .

والمديرية واسعة الأرجاء ، وسكانها على الحالة البدائية ، ولا يوجد شىء من مظاهر المدنية إلا فى المدن والقرى وهى قليلة ، وتقوم فيها المراكز الحكومية . وأشهر هذه البلاد مركز (تورينا) ومركز (بور) ومركز (مريدى) ومركز (رومبيك) ومركز (يوا) ومركز ([illegible]) من القرى أويل ومنجلا والرجاف . وبور تقع أعالى النيل [illegible] وسط مديرية خط الاستواء . ويوجد بجميع هذه البلاد كثير من المسلمين ، وهم يعرفون (بالملكية) وهم من ذرية الجنود القدماء أو ممن اتصل بالتجار قديما . ويوجد فى جوبا نفسها مايزيد على الألفين من المسلمين بحسب التقدير الذى يظهر لنا ، وما عدا هذه البلاد فان الاسلام قليل عنده بعض التجار من العرب وقليل ممن اتصل بهم ، وذلك فى مثل بلدة (زكاكا) و (شامى) و (أمادى) و (تالى) و (ياى) و (ليرا بحو) و (يامبيو) .

وقد اتصل مبعوث الأزهر بكل المسلمين فى جميع أنحاء المديرية ، وأكد لهم ضرورة الارتباط بعضهم ببعض ، وأرسل إليهم النشرات الدينية ، والفتاوى

مكتبتنا العربية

المنظمة لأحوالهم الشخصية ، والدالة على معرفة الاسلام ، وإظهار فضائله وسماحته ، وجعل من جوبا نقطة ارتكاز قوية لهم .

كما نظم أحوال المسلمين الشخصية بجوبا ، وكانت تسير على ما دانت أغلبها وثنى ، وكتب الإرشادات لأهل البلاد الخارجية بهذه التعاليم ؛ كذلك نظم لمن أسلم طريقة التعليم بواسطة البعض من ذويهم ، حيث مكثوا معه بجامع جوبا حتى تعلموا شيئا من القرآن الكريم ، وصاروا يصلون صلاة صحيحة ، ويعرفون روح الاسلام . وقد تعلموا ما يسير عليه قومهم فى أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق وغير ذلك ، ثم رجعوا الى ذويهم ممن قد أسلم يعلمونهم ما تعلموا ، ويتصلون بهم فى المواسم والأعياد وغيرها .

أما مساجد المديرية فهى جامع جوبا ، وجامع رومبيك ، وجامع واو . وتوجد مساجد من الأكواخ فى كل من توريت وياى ومنجلا وأويل ، كما توجد زوايا للصلاة فى بعض القرى .

وقد رأى مبعوث الأزهر أن أولاد المسلمين بجوبا لابد لهم من التعليم ، فألف لجنة من الموظفين والتجار ، وذلك فى يوم ١١ شوال سنة ١٣٦١ و ٢١ / ١٠ / ١٩٤٢ ، وبعد مجهود عظيم أقيمت مدرسة جوبا العربية الاسلامية ، وهى أول مدرسة عربية فى هذه البلاد قامت من أموال خيرية سودانية ومصرية . وقد قرر المجلس الأعلى للأزهر فى جلسته بتاريخ ٢٢ / ٩ / ١٩٤٥ منح هذه المدرسة مبلغ مائة وخمسين جنيها (وإنى أرجو أن يجعلها سنوية) فإن هذه المدرسة هى الحجر الأساسى للنشر العربية فى هذه البلاد ، وما وجدت العربية إلا وجد الاسلام . وهى على نظام المدارس الأولية . ولكن لبرنامج الدين من قرآن وديانة المحل الأول . وفيها الآن ما يزيد على مائة تلميذ . وقد افتتحت فى يوم ١٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ و ٢٠ إبريل سنة ١٩٤٦ أى قبل خمسة أشهر . وقد كان حفل الافتتاح لها كأنه لافتتاح جامعة من الجامعات ، حيث وردت على لجنة المدرسة بضعة وأربعون تلغرافا بالتهنئة من السودان ومصر [illegible] من [illegible] الاذاعة بأم درمان . وذلك كله للمغزى العظيم [illegible] أحسن

مكتبتنا العربية

سير . وقبل يومين فرغت من امتحان واحد وخمسين تلميذا ، وهم الفصل الأول فى المدرسة . وكان امتحانهم فى القرآن الكريم كل على انفراد ، من سورة (والضحى) حتى سورة (قل أعوذ برب الناس ، والفاتحة) وقد نجح هذا العدد جميعه . وهذا مما يبشر بنجاح عظيم ونشر لكتاب الله فى هذه البلاد فى ظرف خمسة أشهر . وبقى أكثر من هذا العدد لمّا يتم امتحانه ، وقد كاد هذا العدد يكتب ويقرأ ، وقد حفظوا عقيدة إسلامية وضعتها لهم . وهم يرتلونها فى أوقات مختلفة ، مع نشاط مدرسى حديث يحبب الناس فى المدرسة . وإنى أرجو أن تكون هذه المدرسة نواة للتعليم العربى فى هذه البلاد ، وأن تخرج من يتدرب على فتح مكاتب للقرآن الكريم فى بلاد المديرية التى مر ذكرها .

ولا شك أن هذه الأعمال تحتاج الى المال والعناية . وقد وضحت ذلك تفصيلا لمشيخة الأزهر فى زيارتى لمصر سنة ١٩٤٢ و سنة ١٩٤٥ ، وسيكون لهذه الأعمال الاسلامية ما وراءها فى نشر الاسلام . وأملى وأمل المسلمين فى الأزهر أن يرعى هذه الحركة المباركة خير رعاية ، وأن يوليها خير عناية .

والاسلام هنا تساعده عوامل طبيعية تزيد من قوة انتشاره . ولكن لا يتم ذلك إلا إذا مهدت له السبل ، وأنير له الطريق والمال وعناية الأزهر ورعاية مصر ، هذه هى الوسيلة الى ذلك .

نسأل الله تعالى أن يوفق الجميع لخدمة الاسلام والمسلمين ؟

انجاز الوعد

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وقال الزهرى : حقيق على من أورق بوعد ، أن يثمر بفعل .

الصحف الدينية

وأثرها فى الثقافة والاصلاح

لحضرة الأستاذ محمود الشرقاوى

أصبحت الصحف فى العصر الحديث عاملا من أهم العوامل وأبرزها خطرا فى حياة الناس وتوجيهها وتثقيفها ؛ ويستطيع كل حاكم متسلط ، أن يجعل من الصحف أداة لترقية الأمة أو الطائفة التى يحكمها ، أو يتولى سياستها وتثقيفها وتوجيهها ؛ يستطيع كل حاكم وكل مسيطر أن يميل بأمته أو طائفته الى حيث يشاء إذا كانت لديه صحيفة أو صحف يحررها ويسيّرها من يستطيع أن يفهم رسالة هذا الحاكم ويصوغها ويوحى بها .

وكذلك يستطيع كل صاحب رسالة مثابر دؤوب أن يفعل ذلك ولو لم يكن حاكما ولا مسيطرا إذا كانت لديه صحيفة ناجحة .

هذه حقيقة أثبتتها التجارب ، وأصبحت من الحقائق التى تعلو على الجدل ؛ ويمكن أن نورد من تاريخ مصر والشرق الحديث ما يكفى لتقريرها ، ولكن الأمثلة والأدلة التى يمكن إيرادها لاثبات هذه الحقيقة قد تكون أمثلة تتصل بالناحية السياسية أو الوطنية من حياة الناس ؛ فهل يمكن أن يقع مثل ذلك فى الناحية الدينية من حياتهم ؟ وهل يمكن أن يكون للصحف الدينية أثر فى ثقافة الشعب وإصلاحه وتوجيهه ؟

ولست أقصد بالثقافة ما ينشر فى هذه الصحف من تفسير لبعض آيات القرآن الكريم ، وشرح بعض الأحاديث النبوية ، وغير ذلك مما يتصل به أو يتعلق بتاريخ العرب أو السلف الصالح ، وما يشبه ذلك الذى اعتادت هذه الصحف أن تنشره . ليس هذا من الثقافة التى أقصدها ؛ لأنه قد يكون مجموعة من المعارف الثقافية التى لونت بلون خاص ولها طابع خاص يقوم على تركيز الآراء السائدة والمعتقدات المألوفة وتمكين نوع المعرفة المتداولة بصرف النظر عن صلاحها وفسادها وعن نفعها وضررها .

مكتبتنا العربية

ليست هذه هي الثقافة التي أقصدها ؛ بل هي تلك الثقافة الإصلاحية التقدمية التي تؤثر في الناس وتدعوهم إلى حياة أفضل ، والتي تساير الزمن وتجعل من الدين وسيلة لإصلاح حالهم وتبسيط مشاكلهم ، لا لتعقيدها وتركهم في حيرة وبلبلة بين ضرورات حياتهم وبين معتقداتهم الموروثة .

فهل من الممكن أن نجد صحيفة دينية لها هذا الأثر الإيجابي التقدمي الإصلاحي في حياة الناس في الشرق ؟

أعتقد أن هذا ممكن ، ولكنه فرع لأصل وجزء من كل ؛ فإذا كان القائم أو القائمون على صحيفة دينية معينة أصحاب ثقافة خاصة بعيدة عن مستوى العوام والتأثر بهم ، وهم في الوقت نفسه أصحاب فكرة إصلاحية يؤمنون بها ويدأبون في السعي لها ولا يخشون أن يصدموا مألوف العامة ، بل يكون [illegible] كله وجهدهم كله موجها لإصلاح عقولهم وتقويمهم لا لإرضاء رغباتهم والجري في مألوفهم وإلباس هذا المألوف الباطل ثوب الحق ؛ إذا كان القائم أو القائمون على صحيفة دينية معينة هذا وصفهم ، فإن هذه الصحيفة تكون عندئذ عاملا مؤثرا في ثقافة الناس وإصلاح شأنهم ، وإذا كانت الهيئة القائمة على إصدار صحيفة ما لها هدف معين تسعى إليه في تثقيف أهلها ثقافة [illegible] أمكن عندئذ أن تكون الصحيفة التي تصدرها هذه الهيئة عاملا مؤثرا في [illegible] الناس عامة ، وأهلها خاصة ، ثقافة تقدمية إصلاحية ، وإلا كان [illegible] مجموعة من المعلومات والآراء التي يرضى بها العوام [illegible] لأنها لا تخرج عن مألوفهم ، ولا يربط بين بعضها وبعض رابط ، ولا يجمعها هدف .

ونحن في تاريخنا الحديث نستطيع أن نجد مثلا لما نريد .

* * *

في تاريخنا الحديث مثل لصحيفة إصلاحية كان يقوم على تحريرها وإصدارها رجل له هدف إصلاحي يسعى إليه ويجعل من هذه الصحيفة وسيلة لهذا الإصلاح والتقويم وإنشاء الثقافة التقدمية ، مع أن هذه الصحيفة كانت صحيفة رسمية تصدرها الدولة ، وكانت للتقاليد في ذلك الوقت سطوة أي سطوة ، وكانت الحكومة والحاكم سندا لكل مألوف ولو كان ظاهر الفساد .

هذه الصحيفة هى « الوقائع المصرية » ، وهذا الرجل هو الشيخ محمد عبده .

و « الوقائع المصرية » أولى الصحف فى مصر على الإطلاق ، تولاها فى أوائل عهدها الشيخ رفاعة الطهطاوى (من سنة ١٨٤٢ إلى ١٨٥٠ ميلادية) وهو أزهرى تثقف فى فرنسا ، وكان ركنا من أركان النهضة المصرية فى عهد محمد على ، وتولاها فى عهده أحمد فارس الشدياق اللبنانى الذى أنشأ بعد ذلك فى الآستانة جريدة « الجوائب » ، وكانت فى عهدها أعظم صحف الشرق جميعا ، وهما فى هذه الصحف كلها كانا داعيين للإصلاح الدينى ؛ ثم تولاها الشيخ أحمد عبد الرحيم.

وفى عهد الشيخ عبد الرحيم هـذا كان الشيخ محمد عبده محررا ثالثا لها ، فوضع تقريرا ومنهاجا لإصلاح الوقائع اختير بسببه محررا أول لها ومديرا للمطبوعات والمطابع المختصة بنشر الصحف التى كانت تصدر باللغتين التركية والعربية .

وقد كان الشيخ عبده فى هذه الفترة من ولايته تحرير الوقائع المصرية مشرفا على مصالح الحكومة وموجها لها ؛ وكانت له رياسة ورقابة على الصحف العربية والأجنبية ، وله عليها حق الإنذار والتعطيل الدائم والموقوت ؛ وكان له أن يسعد ما يراه يستحق النقد من أعمال الحكومة ومكاتباتها وإنشاء موظفيها فى مكاتباتهم الرسمية .

وله حق توجيه النقد بل اللوم إلى المديرين . وقد دأب فى وقت ما على نقد مدير إقليم ، ولاحقه باللوم حتى شكاه هذا المدير إلى رياض باشا ناظر النظار فى ذلك الوقت ، فلم يسمع منه ، وبقى الشيخ عبده على نقده إياه .

وكان الأساس عند الشيخ عبده فى نقده وتوجيهه وإصلاحه هو الدين . وكان له بهذا الأثر فى تقويم كثير مما كان معوجاً ، وإصلاح كثير مما كان فاسدا فى زمنه ، ما يزال المصلحون منا يقفون فى ذلك أثره ويتبعون خطواته

وقد أورد الشيخ رشيد رضا فى تاريخه عن الشيخ محمد عبده فقرة تدل على مقدار ما كان للشيخ عبده من كبير الأثر والسطوة أيام ولايته على الوقائع المصرية ، قال :

مكتبتنا العربية

« . . . صاحب عمامة أزهرية يدخل فى حكومة مطلقة بعيدة فى أعمالها عن رجال العلم والدين ، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها، فيصحح لعمالها ما يكتبون ، ويرشدهم إلى إصلاح العمل فيما يعملون ، ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الأمة فيقوّم من أخلاقها ويصلح ما فسد من عاداتها ، ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ، ويربّيها على الصدق فى القول (١) » .

ذلك أمرٌ استطاع الشيخ محمد عبده أن يفعله فى صحيفة جعل منها سلاحا للتقويم والتوجيه التقدمى والإصلاح على أساس من الدين ، وهى صحيفة رسمية لها حدود وعليها قيود . وكانت للتقاليد فى ذلك الوقت ـ كما سبق القول ـ سطوة أىّ سطوة ، وكانت الحكومة والحاكم سندا لكل مألوف ولو كان ظاهر الفساد ، ولم يكن للصحافة من قوة الأثر والسلطان على الناس مثل مالها فى زماننا هذا .

وهذا الذى استطاعه الشيخ عبده يستطيع أن يفعله فى كل وقت من يكون فى مثل إخلاصه لفكرته ، وشجاعته فى الدعوة إليها ، ومثابرته ودؤوبه فى العمل لها واحتماله فى سبيل مثله وغايته .

***

ولعل قائلا يقول إن الدين كان له فى ذلك الوقت من قوة الأثر على الناس ما ليس يوجد الآن .

ولكن الذى اعتقده وأراه صوابا أن الذى ضعف فى زماننا هذا هو تأثير رجال الدين لأسباب لهم بعضها ، وقد نفرد لها فصلا خاصا . ولكن الدين نفسه لا يزال أثره قويا حاسما على نفوس الناس فى مصر والشرق ؟

محمود الشرقاوى

(١) تاريخ الأستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ص ١٣٩ ج ١ طبعة المنار سنة ١٣٥٠هـ — ١٩٣١ م .

بيئة البصرة

وأثرها فى النحو العربى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء

هناك أسئلة تدور بخاطر من يعانى تاريخ النحو العربى ، وهى : لماذا وضع بالعراق دون سائر الأقطار الاسلامية كجزيرة العرب ومصر والشام ؟ ولماذا بدئ به أول ما بدئ فى البصرة دون سائر أمصار العراق ؟ إن المطلع على تخطيط البصرة يعلم أنها خطت لتكون مشتى لجيوش المسلمين إذا شتوا ، ويكمنون فيها إذا انصرفوا من غزوهم (١) ، وهى على حدود البادية ، وقد نزح إليها كثير من قبائل العرب وكثير من الموالى (٢) ، وكان يفد إليها كثير من الأعراب ، وقد شغلهم أمر مهم كيف يحفظون القرآن من اللحن ، فهُدى أبو الأسود الى حفظه من اللحن فى الكتابة باهتدائه إلى الشكل ، ثم اهتدوا بعد ذلك إلى حفظه من اللحن فى القول والقراءة جميعا بما هدوا اليه من استخراج قواعد النحو واستنباطها .

كانت الكثرة من سكان البصرة للعرب ، وكان فيها عدد أقل من الموالى ، فظهر اللحن فى قراءة القرآن وفى اللغة العربية بمخالطة الموالى ؛ والمسلمون حد حراص على القرآن الكريم أن يغيّر أو يحرّف ، وعلى لغتهم أن يدخلها التحريف والتبديل .

هذه البيئة الطبيعية ليست موجودة فى سائر أقطار الإسلام ؛ فليست موجودة فى جزيرة العرب لأن سكانها غالبيتهم العظمى عرب ، فهى أبعد عن اللحن وفساد اللغة ؛ وليست موجودة فى سائر بلاد العراق لأن سكان هذه البلاد كان أكثرهم من الفرس ولم تكن جمهرتهم من العرب . نعم ما كان يشارك

---

(١) ص ٣٥٤ فتوح البلدان للبلاذرى ط ١٩٠١ (٢) كالأسبانيين الذين نزلوا بها وأقاموا فيها [٣٧٣ المرجع]

مكتبتنا العربية

البصرة فى ذلك إلا الكوفة ، ونحن نعتقد أنه لو لم يظهر النحو فى البصرة لظهر فى الكوفة ، ولذلك ظهر فيها بعد بقليل ، وشاركت فى قواعده بجزء ليس بالقليل . ومهما يكن من شىء فقد سبق العراقُ سائر أقطار الاسلام ، وسبقت البصرةُ خاصةً سائر أمصار العراق فى وضع النحو ، وذهبت بفخر ذلك ، وكان لها السبق والتقدم ، وكان لعلمائها الفضل فى ابتداء النحو وتبويبه ، ووضع قواعده ، وتفريع فروعه .

وإنّ الكتاب لسيبويه البصرى ليدلنا على أن البصرة ولدت النحو وربّته وعمّته حتى لو لم يشاركها فيه مصر من الأمصار لخرج مستغنيا بها عن غيرها ، ولم يضره ذلك فى قليل ولا كثير . إن الكتاب لسيبويه أحاط بقواعد النحو وأصوله وكثير من فروعه وعلله وحكمة الواضع فيما وضع وكثير من أقيسته ، حتى جاءنا علما قد طاب واستوى ؛ وقد سار الكتاب مسير الشمس فى جميع الأقطار الاسلامية ، واشتغل الناس به درسا وتمحيصا وفهما وشرحا واختصارا ، بل إنه لم يخدم كتاب فى العربية مثل ماخدم الكتاب لسيبويه ؛ وقد كان العلماء المتقدمون لا يرونه يعلّم النحو فقط وإنما يعلم الابتكار والاستنتاج أيضا ؛ وقد كانوا يستكثرون على قدرة عالم واحد أن ينتج مثل الكتاب فنحلوه لاثنين وأربعين عالما ؛ قال ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه

لقد كان لبيئة البصرة وجوّها ورمالها [illegible] كان ما استنبطوه من قواعد النحو على ماهو عليه ، ولم يكن على غيره مما استنبطه علماء الكوفة أو غيرهم من علماء الأمصار . ونحن نشير إلى طرف من ذلك :

كانت البصرة قريبة من البادية ، وفيها كثير من العرب ، ويفد إليها كثير من الأعراب ، ووضع النحو فى زمن متقدم ، فنشأ عن ذلك فى نفس علمائها تقديسهم للغة العرب ، وللعرب المتكلمين بالعربية ، فكانوا لهذا يرون أن « العرب لم تعدل من شىء إلى شىء إلا لشىء (١) » ، ولم يفطنوا إلى

(١) الكتاب لسيبويه .

مكتبتنا العربية

أن المتكلمين باللغة قد يظنون فى الشيء أنه من باب كذا فيعطونه حكمه ويكون ذلك توهما منهم . أما الكوفيون فقد شغلوا بالنحو من زمن متاخر ، وكانوا بعيدين عن البادية ، ولم يكن يطرقهم من الأعراب كثير (١) ، وكانوا أقرب الى الترف والمدنية ، فلم تكن فيهم هذه القداسة للغة العرب والمتكلمين بها ، فجوّزوا عليهم التوهم كما يجوز علينا فى محادثاتنا فنظن أن الشيء من باب فنجريه عليه وهو من غيره فما كان ينبغى أن يأخذ حكمه . وسأمثل لذلك :

ورد لفظ أشياء ممنوعا من الصرف ، وهو أفعال جمع شيء كبيت وأبيات ، وأفعال لا يمنع من الصرف ، فوقف سيبويه البصرى موقفا تظهر فيه القداسة لمنهج العرب فقال : إن أشياء أصلها شيآء فهى فعلاء ثم حصل قلب مكانى فجيء بالهمزة فى أولها وقيل أشياء ، فهى على وزن لفعاء ، وإذا كان أصلها فعلاء وفعلاء تمنع من الصرف فلا غرابة فى منعها من الصرف .

جاء الكسائى الكوفى وقال : إن أشياء على وزن أفعال ولكن العرب توهموا أنها على وزن فعلاء فمنعوها الصرف ، ثم جرت فى لغة القرآن على ما نطق به العرب ، وليس بغريب أن يتوهم فى الشيء أنه من باب لمشابهة بينهما فيعطى حكمه .

ولهذا السبب ذاته ، وهو تقديس اللغة ، منع البصريون أشياء محافظة منهم وتزمتا ، كما سبق أن بيّناه .

ورد عن العرب فعال ومفعل للتكرير ممنوعا من الصرف فيما قبل خمسة ، كثناء ومثنى وثلاث ومثلث ورباع ومربع ، ولم يرد فى خمسة وما بعدها ، فامتنع البصريون عن الاتيان بصيغة فعال ومفعل فى الخمسة وما بعدها وأجازه الكوفيون ؛ وحجة البصريين أنه لم يرد عن العرب فى هذه الأعداد فلا نجيء به ؛ وحجة الكوفيين أنه جاء فيما قبلها فنقيس عليه غيرها . وليت شعرى ماذا منع البصريين من القياس مع أنهم يقولون به ؟ فان قالوا كان يجب لنقيس أن

(١) نزل بالكوفة من اليمن اثنا عشر ألفا ومن نزار ثمانية آلاف [٢٨٥ فتوح البلدان] وأقام بها أربعة آلاف من الديلم [٢٨٨ و ٢٨٩ الترجمة] .

مكتبتنا العربية

يرد خماس ومخمس وسداس ومسدس وسباع ومسبع ، قلنا إذا ورد فما حاجتكم الى القياس إذ أنه يكون قد ثبت بالسماع ؟

وبالجملة فقد كان البصريون يتشددون فى القياس فلا يقيسون إلا على ما كثر ، ولا يقيسون على الشاهد الواحد ولا النادر ؛ والكوفيون لا يتشددون هذا التشدد ، فيقيسون على ما ورد ولو نادراً ، ويقيسون على الشاهد الواحد ولو لم يأت فى الباب غيره .

ورد عن العرب مثل :

أقاطنُ قوم سلمى أم نووا ظعنا
إن يظعنوا فعجيب عيش من قطنا

ومثل :

خليلىّ ما وافٍ بعهدى أنتما
إذا لم تكونا لى على من أخالف

مما رفع الوصف فيه فاعلا أغنى عن الخبر إذا اعتمد على نفى أو استفهام ، فقاس البصريون والكوفيون ذلك .

وورد :

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا
مقالة لهبى إذا الطير مرت

فرفع الوصف فيه فاعلا دون أن يعتمد على نفى أو استفهام ، فقاس الكوفيون على هذا الشاهد ، وأجازوا أن يرفع الوصفُ الفاعلَ الساد مسد الخبر ولو لم يسبقه نفى أو استفهام . وامتنع البصريون من القياس لقلته وهم لا يقيسون إلا على ما كثر .

والكوفيون منغمسون فى حضارة الفرس ، فعلموا حاجتها الى تيسير اللغة ، وعلموا أن اللغة خلقت لتخدم أصحابها لا ليكونوا خدما لها ؛ والبصريون وإن كانوا على حضارة ولكنهم أقرب الى البداوة فلم يدركوا هذه الحاجة ؛ لذلك توسع الكوفيون فى القياس وأقلّ البصريون منه .

وأنت تعلم أن القياس يوسع اللغة ويذللها للحاجة المتنوعة ، ويمكّن من استخدامها فى الأغراض المختلفة ، والوقوف على السماع أو الإقلال من القياس يحد من ذلك ؛ وكلما كانت الأمة أعظم حضارة كانت أعظم تقديسا للعقل وأشد استعمالا للقياس وأقل حظا من السماع ؛ وكلما كانت الأمة أقل حضارة كانت أحفل بالسماع وأكثر إهمالا للقياس الذى هو أثر العقل والتفكير .

ولقرب البصرة من البادية ومخالطتها للأعراب الأقحاح وسهولة الأخذ عنهم لم يأخذوا إلا عنهم ؛ ولبعد الكوفة عن البادية وعدم تيسر الأخذ إلا عن العرب المخالطين اكتفوا بالأخذ عنهم ؛ ولذلك قال اليزيدى البصرى :

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل فى نقض ما به يصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائى وأصحابه يرقون فى النحو الى أسفل

وقال الرياشى البصرى :

« نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب ، وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء يأخذون اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز » .

ولست أزعم أن تأثير البيئة هذا مطرد فينتج آثاره دائما ، ولكنى أقول إنه الكثير الغالب ، فلا ينافى هذا أن يقول البصريون بما كان ينبغى أن يقول به الكوفيون ، وأن يقول الكوفيون بما كان ينبغى أن يقول به البصريون لو جرى القياس على اطراده ؛ ولا ينافى أيضا أن يوافق بعض البصريين الكوفيين فى مذهبهم ، وأن يوافق بعض الكوفيين البصريين فى رأيهم .

وبعد ؛ فقد طال بنا القول ، وسنرجىء بقية الحديث الى فرصة أخرى ، إن شاء الله تعالى ؟

حرمة الحج

إذا ترتب عليه فتنة المسلمين وتفريق كلمتهم

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

نشطت دعاية الكفار المحاربين فى بعض البلاد الاسلامية التى نزلوا فيها ، تدعو المسلمين المقيمين فيها الى تأدية فريضة الحج على أن يستقلوا الى البلاد المقدسة بواخر هؤلاء الكفار مجانا . وغرضهم من هذه الدعاية إيهام العالم الاسلامى بأن هؤلاء المسلمين يوالونهم ويخضعون لهم ، وأنهم متسامحون مع المسلمين فى دينهم ، مع حرصهم على تحويل المسلمين عن دينهم والتضييق عليهم فى حياتهم .

ولقد أعرض المسلمون عن هذه الدعاية ، ولكن شدة نشاطها وكثرة وسائل الإغراء التى يستخدمونها ، والتجاءهم الى التهديد والضغط ، تجعلنا نخشى أن يترك كل ذلك أثراً فى بعض ضعاف الايمان . لذلك نتقدم الى اللجنة الموقرة للتفضل بالإفادة عن السؤال الآتى :

ما حكم المسلم الذى يستمع الى دعاية هؤلاء الكفار الذين يحاربون بلاده فيذهب الى الحج على ظهر بواخرهم تاركا الجهاد المقدس الذى خاضته بلاده ضد هؤلاء الكفار ؛ مع العلم بأن ركوبه باخرة أعداء بلاده وانحيازه إليهم يجلبان ضررا شديدا لبلاده المسلمة ، وخيانة لإخوانه المسلمين الذين لا يزالون يخوضون غمار الحرب ضد أعدائهم ؛ ومع العلم أيضا بأن سفره على تلك البواخر يوجب عليه أن يحمل جواز سفر يقرر فيه انتسابه الى جنسية هؤلاء الكفار ؟ مع الرجاء ببيان حكم حجه وحكم دينه وإيمانه .

محمد زين حسن

رئيس جمعية استقلال أندونيسيا

مكتبتنا العربية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه .

الحج فريضة عينية كتبها الله على كل مسلم مكلف تيسر له قوته البدنية ومقدرته المالية أداءها إذا لم يكن هناك مانع .

وقد شرعه الله لمصالح كثيرة دينية ودنيوية ، منها ما يعود على الفرد ، ومنها ما يعود على مجموع الأمة الاسلامية . ومن أهم هذه المصالح تمكين المسلمين بذلك الاجتماع السنوى العام الذى يفدون إليه من مختلف الأقطار من النظر فى مصالحهم الوطنية الخاصة ، ودراسة شؤونهم الدينية العامة ، والاتفاق على تكميل ما ينقصهم فى هاتين الناحيتين ، والعمل على ما يرفع شأنهم ويكفل لهم سعادة الحياة فى أوطانهم ، ويضمن لهم الأمن والسلامة فى علاقاتهم مع الأمم الأخرى على أساس من أحكام الدين الحنيف ؛ وهو من أجل ذلك كان من أعظم العبادات ، وأقوى دعائم الاسلام .

غير أنه قد تعرض حالات لا يكون الحج معها مطلوبا بل ولا جائزا شرعا . ويتقدر الحكم فى كل حالة بقدرها وعلى حسبها ، فان من أصول الشريعة التى لا ينبغى الامتراء فيها ما يقضى بأن العمل إذا كان يحصل مصلحة ومفسدة وغلبت مفسدته على مصلحته فانه يكون ممنوعا شرعا درءا للمفسدة الغالبة .

وتطبيقا لهذا المبدأ كان من المسلّم فى نظر الشريعة الاسلامية :

(١) أن الرجل إذا خاف على زوجته الفتنة إذا هو خرج للحج وتركها من غير محرم يحفظها لم يجز له أن يخرج للحج .

(٢) وأن المرأة لا يجوز لها أن تخرج للحج من غير أن يكون معها زوج أو من يؤمن معه جانب الفتنة .

(٣) وأن قائد الجند أو متولى حراسة البلد إذا غلب على ظنه أن تغيبه فى الحج يمكن للعدو أن يتغلب على الجند أو يترتب عليه الاضطراب والاختلال

مكتبتنا العربية

الأمن فى البلد ، لم يجز له شرعا أن يخرج للحج . ولقد أبيح للمجاهد أن يفطر فى رمضان إن لم يكن مسافرا ولا مريضا إذا غلب على ظنه أن صومه يضعفه عن الجهاد .

ولا ريب أن من هـذا القبيل أنه إذا كان أهل بلد إسلامى أو قطر من الأقطار الاسلامية فى مهم دينى أو وطنى وعلم أن خـروج واحد أو طائفة منهم للحج يحدث فتنة فى الباقين أو ضعفا أو اختلافا يفسد أمرهم ويفرق كلمتهم وتتمزق به جماعتهم ، كان حراما أن يخرج أحد منهم للحج .

ومن هذا يتضح الجواب عن الاستفتاء المذكور ؛ فإنه إذا علم أن سفر جماعة من المسلمين للحج على نفقة عدوهم وفى سفن أعـدها لهم يتخذه ذلك العدو وسيلة لفتنتهم وإحـداث الانقسام فى صفوفهم وإضعاف شوكتهم ، كان من أعظم المحرمات موافقة ذلك العدو والخروج الى الحج ؛ وذلك لأن مفسدته تربو على مصلحة أداء الحج . هـذا إلى أن فيه موالاة لأعداء الله أو ظهورا بمظهر هذه الموالاة من غير مصلحة راجحة أو دفع مضرة .

وما مثل الذين يستجيبون لدعوة الأعداء فى هذا الشأن ويخدعون بمظاهر عطفهم المدخول الذى يفرقون به وحدتهم ويركزون به على المسلمين سلطانهم إلا كمثل من مال إلى ممالأة أولئك المنافقين الذين اتخذوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار تفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، فقـد ادعوا أنهم لم يتخذوه إلا لما تتخذ له المساجد من العبادة وإقامة الصـلاة ، وكانوا يحلفون أنهم ما أرادوا بذلك إلا الحسنى ؛ ولـكن الله فضح أمرهم وكشف عن سوء نواياهم وكيدهم للاسلام والمسلمين ؛ وذلك هو قوله تعالى « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون » .

ثم إن قبول المال للحج به من العدو الذى أراد تفريق المسلمين وإفساد أمرهم من هذا السبيل إثم كبير وجرم عظيم . والحج بذلك المال أكثر شناعة

مكتبتنا العربية

وأعظم إثما من الحج بمال الرشوة والسرقة والمال المغضوب . ولا شك أن الحج بهذه الأموال غير مقبول .

ومن يعلم حكم الشرع فى هذا ويقدم عليه مستحلا له فهو غير مسلم .

ولقد طلب الله من المؤمنين أن يعتصموا بحبله المكين ، وأن يكونوا يداً واحدة على من عاداهم ، وحذرهم أن يقعوا فى مخالب الفتنة عن طريق الإغراء بالمال أو الإغواء بالجاه والسلطان ، حفظا لوحدتهم ، وبُعدا بهم عن أسباب التنازع والفشل ؛ قال الله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبيناً » « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ثم يقول « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » وقال تعالى «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر » « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم » « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » .

ولا ريب أن فى مطاوعة بعض المسلمين للكفار فى مثل حادثة الاستفتاء تفريقا لوحدة المؤمنين ، وعملا على تحقيق الفتنة التى يقصدها الكافرون ، وعلى تمكين سلطانهم فى بلاد الاسلام . وكل ذلك وما يؤدى إليه من وسائل مما يأباه الدين وتحرمه الشريعة وتراه حربا على جماعة المسلمين . قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم » .

فعلى المسلمين جميعا أن يتنبهوا لما يصطنعه الأعداء من صور التعامل والتعليم والتنظيم والتمريض والمعالجة وغير ذلك مما يخفون وراءه مقاصدهم السيئة ضد الاسلام والمسلمين .

مكتبتنا العربية

اعتذار

نظـرا لأن موعد صدور مجـلة الأزهر هو أول المحرم ، اضطررنا للبدء فى طبع المجلة قبل ذلك اليوم بأسبوعين ، فلم نستطع نشر شىء عن ذلك الاحتفال العظيم الذى أقيم بالجامع الأزهر احتفالا بالعيد الهجرى وتفضل بتشريفه حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، واضطررنا إلى إرجاء نشر بيان مفصل عنـه ، وإيراد تلك الـكلمة البليغة الجامعة التى ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الـكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر تنويها بشرف ذلك اليوم الـكريم ، وإشادة بفضل صاحب الجلالة الملك المعظم ، أعاده الله على جلالته وعلى الأمة الاسلامية باليمن والاقبال .

وفى هـذه المناسبة نذكر أننا اضطررنا بسبب ضيق المقام إلى الحد من أبواب المجلة ، فلم ننشر شيئا من الموضوعات التى قررنا نشرها بلغة أجنبية ، ولا من المخطوطات الجليلة الفائدة التى لم تنشر بعـد . كل ذلك سنستدركه فى الأعداد المقبلة ، إن شاء الله .

وإذا كان الاسلام قد نبه المسلمين الى وجـوب اليقظة والحيطة خوف الوقوع فى حبائل الشر التى يصطنعها لهم أعداؤهم ، فإنه لم يفته أن ينبههم الى وجوب الوفاء بالعهود التى يراد بها الخير وإسعاد الانسان ، وإلى مسالمة من لا يريدون للمسلمين شرا ولا أذى ومن يقفون منهم موقف السلم والحياد ؛ قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فهاتان الآيتان تعتبران دستورا إسلاميا يرجع إليه فى معرفة ما يحل وما لا يحل من وجـوه العلاقات التى تكون بينهم وبين غـيرهم من المخالفين لهم فى الدين . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

اللائحة الداخلية لمجلة الازهر

تبعا لمذكرة فضيلة الأستاذ الأكبر التى أقرها المجلس الأعلى للأزهر فى ٢٤ رجب سنة ١٣٦٥ الموافق ٢٣ يونية سنة ١٩٤٦ .

الغرض من هذه اللائحة هو تنظيم مجلة الأزهر بحيث تصلح لحمل رسالة الجامع الأزهر ، والتعبير عنها أكمل تعبير ؛ ولأجل هذا حددت أغراض المجلة والموضوعات التى تكتب فيها ، والإشراف على تحريرها وإدارتها على النحو التالى :

ا ــ أغراض المجلة

أغراض المجلة هى الدفاع عن الاسلام وبيان فضائله ، والتعبير عن مساهمة الأزهر فى العناية بالدراسات الاسلامية عناية إنشائية ، وتكون حلقة اتصال بين الأزهر وسائر الجامعات والمعاهد العلمية من جهة ، وبين الأزهر والرأى العام المثقف من جهة أخرى ، وتكون أداة تعليم الأزهريين ، وأداة توجيه دينى وإصلاحى للمسلمين .

ب ــ تفصيل الموضوعات التى تكتب فيها مجلة الازهر

لما كانت مجلة الأزهر تنشر لحمل رسالة الأزهر الى الشعوب الاسلامية وغيرها ، وجب أن يكون ما ينشر فيها مناسبا لمهمتها ، وذلك بأن تكون هذه المجلة من غزارة المادة وتنوع البحوث بحيث تمثل الاتجاهات الثقافية والاصلاحية للجامع الأزهر ، وهذا كما يأتى :

أولا : نشر البحوث المؤيدة لعقائد الاسلام وشرائعه المبينة لمهمته العالمية ، والمبطلة بالحجج والبينات لشبهات الإلحاد التى تقف فى طريق هذا الإصلاح العالمى العظيم .

مكتبتنا العربية

ثانيا : نشر بحوث طريفة قائمة على أسس سليمة من مناهج البحث فى العلوم الاسلامية خاصة ، وفى الآداب والعلوم والفنون والاجتماع عامة ، مع الإلمام بحركة التيارات الفكرية فى العالم .

ثالثا : نشر مختارات مما يظهر فى المجلات والكتب مما يكون فيه فائدة علمية أو أدبية لقراء المجلة ، وذلك رغبة فى مسايرة الحركة الفكرية فى العالم .

رابعا : التعريف بالكتب التى تتصل بالاسلام مما ينشر فى مختلف اللغات والبلاد ، والتعريف بالمخطوطات العربية القيمة لاسيما الموجود منها بدار الكتب الأزهرية ، ونشر مخطوطات عربية قصيرة ذات قيمة ، وتلخيص منتخبات من رسائل جماعة كبار العلماء والرسائل التى يضعها أعضاء البعثات الأزهرية فى الخارج ورسائل الأستاذية فى مختلف أقسام التخصص بالجامع الأزهر .

خامسا : نشر مباحث فى مذاهب الإصلاح الدينى والاجتماعى وفى نظم التعليم والآداب .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سادسا : تزويد القراء بأهم أخبار المعاهد والجمعيات العلمية فى مصر والخارج ، وبأهم الأخبار الخاصة بالتغييرات الاجتماعية والثقافية فى العالم الاسلامى وغيره ، وكذلك بأخبار الجامع الأزهر العلمية الدراسية .

جـ ـ نظام المجلة

(١) تصدر المجلة فى نحو مائة صفحة فى أول كل شهر عربى ما عدا شهرى الحر الشديد ، وتكون سنتها عشرة أشهر .

(١) أن يكون لها ملحق يكتب بلغة أجنبية فى موضوع يهم من لا يعرف العربية من المسلمين وغيرهم ، أو يشتمل على طبعة مستقلة لبعض المخطوطات العربية القيمة ، أو لما يظهر فى المجلة من بحوث .

مكتبتنا العربية

د — لجنة مجلة الازهر

يتولى الإشراف على تنفيذ اللائحة لجنة تدعى « لجنة مجلة الأزهر » وتتألف من السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، ومدير مجلة الأزهر ، وممثل لمكتب البحوث والثقافة الاسلامية بالأزهر ، وأحد أساتذة الكليات بالجامع الأزهر .

ويختار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر العضوين الأخيرين ويعين أحدهما سكرتيرا لتحرير المجلة .

وتجتمع هذه اللجنة مرتين فى الشهر على الأقل ؛ وهى تختص بتدبير المقالات والبحوث التى تعد للنشر فى المجلة ويتولى باشرافها مكتب البحوث والثقافة الاسلامية بالجامع الأزهر أبواب المجلة الخاصة بالترجمة من اللغات الأجنبية وإليها ، وأخبار الهيئات العلمية والدينية ، والتطورات الاجتماعية ؛ وأخبار الأزهر ، وتختص أيضا بتقدير المكافآت لأصحاب المقالات والبحوث ، وتقدير قيمة الاشتراك فى المجلة وثمن بيعها مراعية نفقاتها ، والإشراف على نظام الطبع والتوزيع .

هـ — موظفو المجلة

يسند إدارة المجلة ورياسة تحريرها إلى مدير جدير بها من النواحى الدينية والإدارية والثقافية . ويشترط أن يكون عارفا ببعض اللغات الأجنبية ، وله من السلطة إزاء مرءوسيه من الموظفين والخدم ما لكل مدير إدارة فى مصالح الحكومة ؛ وهو الذى يتلقى مكاتبات المجلة الادارية ويوقع على كل منها بما يجب اتباعه ويراقب تنفيذها ؛ وهو الذى يتلقى البحوث والدراسات التى يراد نشرها فى المجلة ويعرضها على لجنة المجلة .

ويلى المدير سكرتير التحرير يعاونه ويقوم مقامه فى حال غيابه .

ويكون لإدارة المجلة قلم كتاب مؤلف من كاتب حسابات وآخر لتلقى المكاتبات الادارية من المدير وتصريفها ، ومن مصحح للمجلة .

ويتبع الادارة حاجب وفراشان .

قرار

بتعيين عضوين بلجنة مجلة الأزهر

بعد الاطلاع على قرار المجلس الأعلى للأزهر الصادر فى ٢٤ رجب سنة ١٣٦٥ (٢٤ يونيه سنة ١٩٤٦) بشأن تأليف لجنة تشرف على تنفيذ اللائحة الداخلية لمجلة الأزهر يكون من بين أعضائها ممثل لمكتب البحوث والثقافة الاسلامية ، وأحد أساتذة الكليات بالجامع الأزهر ، يختارهما شيخ الجامع الأزهر ، ويعين أحدهما سكرتيرا لتحرير المجلة .

قررنا ما يأتى :

أولاً — اختيار حضرة الأستاذ محمود الخضيرى المدير المساعد لمكتب البحوث والثقافة الاسلامية عضوا فى لجنة مجلة الأزهر ممثلا لهذا المكتب .

ثانيا — اختيار حضرة الدكتور محمد ماضى الأستاذ بكلية أصول الدين عضوا فى هذه اللجنة ، ويعين سكرتيرا لتحرير المجلة

تحريراً فى { ٩ من شعبان سنة ١٣٦٥ — شيخ الجامع الأزهر
٨ من يوليه سنة ١٩٤٦ — مصطفى عبد الرازق }

صورة مرسلة إلى حضرة الأستاذ محمود الخضيرى المدير المساعد لمكتب البحوث للاحاطة به وتنفيذه .

٩ من شعبان سنة ١٣٦٥ — شيخ الجامع الأزهر
٨ من يوليه سنة ١٩٤٦ — (مصطفى)